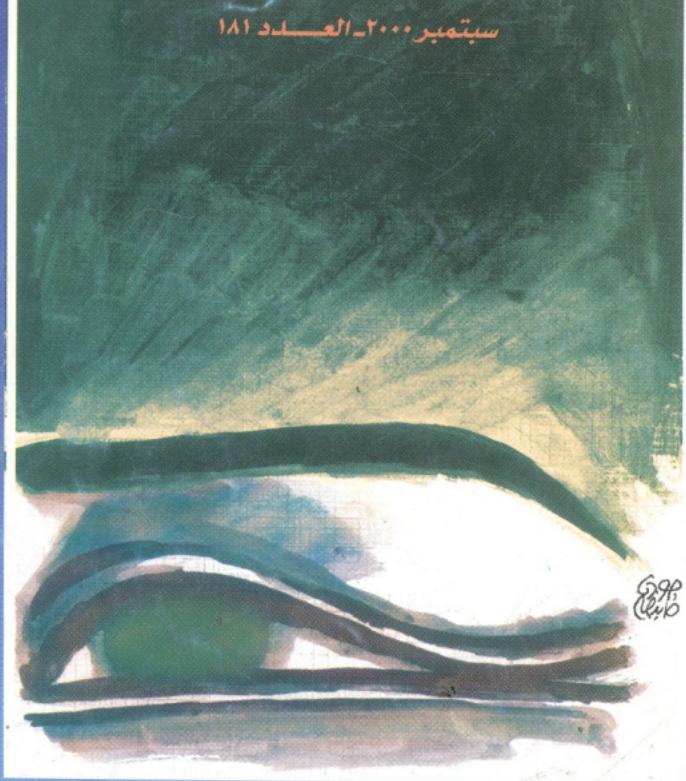


أد-وند

مجلة الثقافة الوطنية الديموقراطية

سبتمبر ٢٠٠٠ العدد ١٨١



- الحسبة: هل لها أصل في تشريع القرآن الكريم
- الحسبة: بين الدولة المدنية والدولة الدينية
- طالب ان: الدين.. الوطن.. المخدرات
- چان چينييە: كنت طوال حياتي «ضد»
- الشيخ إمام: جاتكوا فضيحة ياطبة سطحية





أَدْبُ وَنَفْدٌ

مجلة الثقافة الوطنية الديموقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الولحي
العدد ١٨١ - سبتمبر ٢٠٠٠



رئيس مجلس الادارة : د. رفعت السعيد
رئيس التحرير: فريدة النقاش
مدير التحرير: حلمى سالم
سكرتير التحرير: مصطفى عباده

مجلس التحرير: إبراهيم أصلان / د. صلاح
السروى / طلعت الشايب / غادة نبيل / كمال
رمزي / ماجد يوسف



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanearb.com رابط بديل



المستشارون: د. الطاهر مكى / د. أمينة رشيد /
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس
شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الرئيسيون: د. لطيفة الزيات /
د. عبد المحسن طه بدر / محمد روميش / ملك عبد العزيز.

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنان الكبير: جودة خليفة

التنفيذ الفني للغلاف: أحمد السجيني

(طبع شركـة الأـمل لـلـطبـاعـة وـالـنـشرـ).

أعمال الصـفـ والتـوضـيـبـ الفـنـيـ: نـسـرـينـ سـفـيـدـ إـبـرـاهـيمـ
الـمـراسـلـاتـ: مـجـلـةـ أـدـبـ وـنـقـدـ ١ـ شـارـعـ كـرـيمـ الدـوـلـةـ/ـ مـيـدانـ طـلـعـتـ حـربـ .ـ الـأـهـالـيـ

الـقـاهـرـةـ .ـ تـ: ٢٩ـ /ـ ٢٨ـ /ـ ٥٧٩١٦٢٧ـ فـاـكـسـ: ٥٧٨٤٨٦٧ـ

الـاشـتـراكـاتـ لـمـدةـ عـامـ: دـاخـلـ مـصـرـ ٤ـ جـنـيهـاـ /ـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ ٢ـ دـولـاـرـاـ .ـ أـورـوباـ
وـأـمـريـكاـ ٦ـ دـولـاـرـاـ بـاسـمـ الـأـهـالـيـ .ـ مـجـلـةـ أـدـبـ وـنـقـدـ .ـ الـأـعـمـالـ الـوـارـدـةـ
إـلـىـ الـمـجـلـةـ لـأـتـرـدـ لـأـصـحـابـهاـ سـوـاءـ نـشـرـتـ أـوـ لـمـ تـنـشـرـ .ـ

الفهرس

- أول الكتابة/ المحررة/ ٥
- الحسبة: هل لها أصل في تشريع القرآن/ د. أحمد سبхи منصور/ ١١
- الديوان الصغير :
- الحسببة بين الدولة المدنية والدولة الدينية/ مركز المساعدة القانونية/ ٢٣
- صلاح محسن: الاعتراف سيد الأدلة/ حلمي سالم/ ٤٧
- نقد العقل الإسلامي: متى وكيف؟/ أيمن عبد الرسول/ ٤٤
- طالبان: الدين، الوطن، المخدرات/ عرض: أسامة الرحيمي ٦٩
- جان جنيني في حديث غير معروف/ كنت طيلة حياتي ضد/ ٧٧
- الذكرى الخامسة لفن الشعوب: الشيخ إمام/ أشرف الصباغ/ ٨٩
- جر شكل: لا بد أننى شيوعية/ غادة نبيل/ ٩٧
- جر شكل: سر الخسنة/ ماجد يوسف/ ١٠٢
- رسالة المغرب: الرباط والمهرجان والشيخ إمام/ نورا أمين/ ١٠٨
- فن تشكيلي: الفن والألهة الإلكترونية/ أشرف إبراهيم/ ١١٣
- متابعات نقدية: مصطفى عطية جمعة/ محمد عبد الحميد الدغidi/ شريف صالح/ ١١٩
- أصوات جديدة: ضراوة المبتسم/ تصويم: وليد طلعت/ إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزونى، محمد داود، محمد طلبة، عمرو النوساني/ تقديم: مزيد أبو سعدة/ ١٢٢
- شعر: بيجرب المشى على رجل واحدة/ مسعود شومان/ ١٥١
- شعر: الطريق/ جمال راغب الدرballs/ ١٥٦



أول الكتابية

نواصل في هذا العدد ما كنا قد بدأناه في أعدادنا الثلاثة الأخيرة عن حرية الفكر والتعبير والاعتقاد والقيود التي يسعى البعض لتكبيلها بها باسم الدين، والحسنة من الزوايا الدينية والقانونية هي موضوع هذا العدد الرئيسي لأنها أصبحت سلاحاً أخذ يشهره الظلاميون ودعاة الانقلال في الماضي وأصحاب الجمود الفكري والديني في وجه الاستنارة والتفتح وحرية التعبير حتى أصبح العرب عرضة لعملية إفقار واسعة الفنطاق لإبعادهم الأدبي والفنى إضافة إلى تدني اسهامهم في الإبداع العلمى والتكنولوجى العالمى رغم كل المظاهر الخارجية سواء كان من هذه المظاهر وسائل النقل العملاقة التى تستخدمنا أو الأقمار الصناعية التى يمسنعنها لنا الآخرون ونكتفى بالاصوات أسمائنا عليها وتبسيخيرها لنقل المواد الدعائية الفجة التى تجعل العالم يهزاً بنا، ونطلق على هذه المهرولة اسم السيادة الاعلامية.

وننشر دراسة للدكتور «أحمد صبحى منصور» وهو أزهري فصلته المؤسسة بسبب جرأتة العلمية يرد فيها على هذا السؤال : الحسبة : هل لها أصل فى تشريع القرآن؟.

ومثلاً فعل الباحث والمفكر الإسلامي جمال البنا الذى نشرنا له قبل عددين دراسة عن حد الردة معتمداً على القرآن الكريم ومبينا أنه لا وجود إطلاقاً لمثل هذا الحد في القرآن والسنة ، يستند «منصور» أيضاً إلى القرآن أساساً في الرد على سؤاله .. أى على الكتاب الذي هو أصل الإسلام المحفوظ حتى قيام الساعة

تتجمع أحكام الفقهاء عن الحسبة في قضايا أساسية هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن خلالها يتدخل المحتسب الرسمي أو المتطوع في حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادية والتعبدية، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفرق بين المرء وزوجته ،

ويتطرف بعضهم فلا يعطى المسلم المتهم بالزنادقة أو الخلاف في الرأي حق المحاكمة بل يقتل حتى وإن أعلن توبته ..

وકأنه يصف ما يحدث فعلا الآن في عدد يتزايد من البلدان الإسلامية حيث تجري ملاحقة المفكرين والكتاب والمبدعين وقتلهم كما حدث في مصر والجزائر وقني اليمن ولبنان في بنجلاديش وإيران، حيث جعلوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة التي تعود إلى تشرعيات العصر العباسي في القرون الوسطى ولم تعرفها دولة النبي أو الخلفاء الراشدين، حيث كانت القاعدة العامة وما تزال في القرآن هي «الدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة، وأن يكون الجدال بالتي هي أحسن» وهو ما دعا إليه في كل الأحوال مثقفو التنوير والديمقراطيون بعامة وما دعا إليه الفكر النقدي دائمًا ..

ويؤكد الباحث أنه طبقاً للقرآن لا يصح للمؤمن أن يتهم أحداً بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين، ولا يجوز للنبي أنفسهم الحكم على الناس واتهامهم بمن في ذلك المشركون فذلك لله وحده فهو الإله الغفور الرحيم الذي ساوي بين البشر جميعاً وقاتل عنه «غاندي»، كما تسوق النص زميلتنا الشاعرة «غادة نبيل» التي لابد أن تتحقق !!! إذا كانت حقاً شبوغية.

«الله هو الديمقراطي الأعظم لأنّه أعطانا حرية أن نؤمن به أو لا نؤمن» كذلك فإنه لا يجوز ليبشر استثنابة إنسان أو إتهامه بالردة فذلك شأنه مع الله وحده، وليس ليبشر - حتى النبي - أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبده في موضوع التوبة.

ولعل أخطر ما يسوقه لنا هذا البحث في معرض الحديث عن التفريق بين الزوج وزوجه وهو غير الجائز إسلامياً حتى لو كان أحد الزوجين مشركاً، وسوف أسوق النص كاماً لأهميته البالغة:

ـ تذكر كتب السيرة أن ابنين لأبي لهب كانوا على وشك الزواج ببنتين للنبي، ثم تركاهما بتائير أبي لهب وأم جميل، وتذكر السيرة أيضاً أن زينب بنت النبي تزوجت من مشرك بلغ من إخلاصه لعقيدته أنه اشتراك مع المشركين في موقعة بدر، ثم أسره المسلمون، وبعثت زوجته بنت النبي

بعد لتفتدى به زوجها من أبيها إلى المدينة ، أى أنها بقيت مع زوجها في مكة ، ولم تتركه لتهاجر مع أبيها إلى المدينة مع إسلامها ، ثم تركت زوجها فيما بعد وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمناً والمستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد وأنه ليس في تشريع الإسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختار ذلك وافتقرًا عن بعضهما بمحض إرادتها».

ورغم هذه الوقائع الدامغة ، بل ورغم أن الباحث في علوم القرآن نصر حامد أبو زيد أكد أكثر من مرة أنه مسلم مؤمن بكتاب الله ورسوله فباسم ارتداده أو شركة صدر حكم التفريق بينه وبين زوجته «ابتهاي يونس» بدعوى أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج مشركاً ، ويقاضي «نصر» وزير العدل في ذلك وما تزال القضية منظورة أمام المحاكم.

وفي الديوان الصغير نص الدراسة التي كان مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان قد أجرتها حول الحسبة من الزاوية القانونية وفي ارتباطها بحقوق الإنسان وهي عن «المسسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية»، فبدعوى الحسبة تعكس في حقيقتها رؤية طائفية تنبع على التمييز بين المواطنين على أساس دينية، كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزاً على أساس من الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أم غير مسلمة.

والحسبة سلاح ضد حرية المواطنين فقد قام الحكم الماليك «بمنع المصريين من كثرة الكلام لما اشتهروا به من السخرية بالملك وسلطانهم».

وفي نظام الحسبة نجد أن «فكرة النظام العام العلمانية تحول إلى فكرة حقوق الله» وهي فكرة دينية عقائدية ، فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية ، والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين ، وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الديني لفكرة حقوق الله ، أو جردننا غير المسلمين من حق المواطنة».

ولا تصلح المادة الثانية من الدستور التي تنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع لتكون سندًا بذاتها لدعوى الحسبة

لأن المحكمة الدستورية العليا أصدرت حكماً تارياً يقول إن نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن في حقيقته خطاباً موجهاً إلى المشرع لا إلى الكافة.

ولكن الحكومة المصرية بدلاً من أن تستند إلى هذا الحكم القوى للغاء دعوى الحسبة تماماً أحالت الحق في تحريكها إلى النيابة العامة ليبقى سلاح الحسبة عنصر تهديد دائمًا للكتاب والمفكرين كما حدث في قضية الكاتب صلاح الدين محسن الذي يقدم لنا الزميل حلمي سالم تقريراً عنها في هذا العدد وذلك بعد صدور حكم بحبسه لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ بدعوى الإلحاد.

ويقدم لنا «أمين عبد الرسول» الذي تخرّج أديب ونقد بانها قدمته للحياة الفكرية باحثاً وأعداً قراءة في عمل مفكر جزائري الأصل مقيم في فرنسا ويكتب بالفرنسية وقد تخصص في الإسلاميات وهو «محمد أركون» الذي ننوي أن نقدم كتبه تباعاً لأهميتها البالغة ليتعرف قاريءً «أدب ونقد» على عالمه وأليات تفكيره النقدي العلمي في نقد كل من الخطاب الإسلامي السادس والاستشرافي المتعالي سعيًا إلى تأسيس ما أسماه بالقراءة التزامنية للقرآن تنظر إليه في كليته وهي تستعيد لحظات تلقى الوحي الأصلية وسياقاتها ، مع ضرورة أن يتسلّح الباحث بمعرفة شاملة وعلمية بالتراث وبطرق الاجتهاد الكلاسيكية قبل أن يحدث قطيعة معها ، خاصة أن ممارسات التفسير الإسلامي التقليدي مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقي والضعف.

ويستطيع «محمد أركون» أن يقدم اجتهاده العلمي والفلسفى في مناخ أمن في باريس مناخ يحمى الفكر والاعتقاد والاختلاف ، ويحتفى بالبحث الخلاق دون إكراه أو تكفير أو تعسف ، إنه المناخ المواتي لإبداع العلم وأبتكارات العلماء ، المناخ الذي يحثّ حثاً على إعمال الخيال بلا حدود فيكتب الأدباء ويبعد الفنانون وهو فارق جوهري بين حالتين حالة العمل تحت التهديد والضفوط في البلدان الإسلامية والعربية التي يتعرض فيها الفكر للقمع والوأد ، وحالة العمل في بلد متقدم لا يكون على العلماء والباحثين

والمفكرين فيه أن يخوضوا مرتين وثلاثًا نفس المعرك كما يحدث في بلادنا، ليس ذلك فحسب وإنما يدفعون أيضًا ثمن شجاعتهم الفكرية غالباً إما قتلاً أو مطاردة أو إسكاتاً للصوت وتعطيلًا للطاقة الفكرية إلى إجترار ما سبق انتاجه تطليعاً للسلامة، وإشاعة الجبن الفكري والفقر المعرفي لتظل حياتنا الفكرية والثقافية تفتات على فتات ما ينتجه الآخرون وتتحلل تحت وطأة الركود والمحاصر.

إن سيناريyo متخيلاً يتصور أن «محمد أركون» قد واصل العيش في الجزائر وبدأ مسيرته العلمية هناك وبقى بها حتى الآن سوف يقودنا حتماً إلى نتيجة مأساوية، فإن مصيره في هذه الحالة لم يكن لتصبح بأفضل من مصير المائتي مثقف الذين اغتالهم رصاص الإرهابيين وسكاكين الظلاميين، فإذا كان الذين قتلوا مائتين فابن آلها مؤلفة من المثقفين قد انطروا على أنفسهم أو صمتوا ولم تكتمل مشاريعهم العلمية كما كانوا يحلمون لقد تحولت بلادنا إلى مقابر للأحلام فليرع الله «محمد أركون» حيث هو ليحمل وينتاج ويضيئ الزوايا المظلمة في العقل الإسلامي بجسارة من لا يعيش تحت التهديد.

هل أكتب ببأس؟ وهل يتضمن كلامي دعوة مبطنة لهجرة البلاد من أجل الحرية في مكان آخر.
كلا .. وألف كلا.

بل إنني أدعو المؤسسات العلمية والأدبية الصاعدة حتى وإن كانت صغيرة أن تواصل عملها بكل الجهد وإتقان لرمادة الباحثين الجدد ودعم شجاعتهم الروحية والفكرية ومساعدتهم على الاستمرار والتحمل تصوروا، إن «أيمان عبد الرسول» الذي نعول عليه كثيراً هو مضطر لكن يعيش أن يعمل ضابط أمن يقضى الليل ساهراً في إحدى المؤسسات الخاصة في الإسكندرية لحراستها، ولنا أن نتصور وضع آلاف من الباحثين الشبان الذين يطمحون إلى تقديم مشاريعهم العلمية ولكنهم يعجزون لأنهم وقعوا بين الطاغيون والكوليرا على حد تعبير الكاتب الجزائري الراحل «كاتب يسن» وهو يتحدث عن عنف العسكريين وفسادهم من جهة وعنف الجماعة

الإسلامية بوحشيتها من جهة أخرى ونضيف إليها ضعف الموارد المخصصة
للبحث العلمي:

سوف نعود مرة أخرى لمناقشة هذا الموضوع الكبير ولنبحث حول
إمكانيات المؤسسات الكثيرة في بلادنا ومدى قدرتها على تقديم الحماية
والإحساس بالأمان للباحثين والمتقين عامة وهو ما سوف يدفعنا دفعاً إلى
مسألة الديمقراطية والحربيات العامة.

أما مفاجأة هذا العدد فهي حديث غير معروف للكاتب الفرنسي الاشكالي
العظيم «جان جينيه»، الحديث يستعرض على التصنيف مثلما هو قائله ذاته
إذ يطرح بجرأة وروح عالية أفكاره وتصوراته التي أثارت وما تزال
عواصف لا تهدأ عن الكتابة .. الاستعمار الاستغلال .. معنى الوطن .. القتل ..
العزلة .. إلخ.

ما دامت فرنسا - «وطنه» لا تهتم بتلك السياسة التي يسمونها شمال /
جنوب ، ولا تولى مزيداً من الاهتمام بالعمال المهاجرين أو المستعمرات
القديمة، فإن السياسة الفرنسية لا تهمني في شيء.

ولعله كان من حسن حظنا وحسن حظ المفكر الجزائري «محمد أركون» أنه
هاجر إلى فرنسا طالباً وليس عاملاً نظافة أو حملاً أو سائقاً فما زال المجتمع
القطبي على الصعيد العالمي يفسح- ولو مكاناً ضئيلاً- لأبناء الطبقة
الوسطى بينما ينفي الجماهير العاملة في الاستغلال الكثيف.

وإن كان جينيه يقول:

«الفرنسيون ليسوا فقراء .. الفقر الحقيقي في فرنسا هو العامل المهاجر ،
الفرنسيون ليسوا فقراء ، إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت
امبراطورية استعمارية».

إنقذنا بعض أصدقاء «أدب ونقد» أو الفاضلين عليها لأننا أحياناً ما نعيid
نشر مادة نقلاب عن مطبوعات أخرى ، وتوقفنا طويلاً أمام هذا النقد ، لكن
إغراء كلمات «جينيه» كان أقوى منه.

المحررة

الحسنة: هل لها أصل في تشريع القرآن؟

د. أحمد صبحي منصور

مقدمة

القرآن الكريم هو أصل الاسلام المحفوظ إلى قيام الساعة، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . وخاتم النبيي كانت وظيفت مخصوصة في تبليغ هذه الرسالة الالهية «المائدة ٩٢، النحل ٣٥، ٨٢، ٩٩، الشورى ٢٤، يونس ١٦، ١٥ » كما كان ممنوعا من إخفائها أو تبديلها «الاسراء ٧٢، الاحقاف ٩، الاعراف ٢، يونس ١٥، الحج ٤٤-٤٧» . وخاتم النبيين كان مأمورا باتباع هذه الرسالة الالهية القرآنية «الانعام ، الانعام ، الاعراف ٢، يونس ١٥، الاحقاف ٩» . وهذا الاتباع للقرآن هو سنته الحقيقة أى التطبيق العملى لكتاب الله تعالى . ومن يحب النبي ويؤمن به ويyoالبه هو الذى يؤمن بأن النبي عليه السلام قد قام بتبلیغ القرآن كما نزل عليه ، وانه عليه السلام لم يخالف القرآن في أقواله ، وانه عليه السلام طبق أوامر القرآن كما هي . وأصحاب الاهواء هم الذين ينسبون للنبي أقوالا تخالف القرآن . وهم الذين ينسبن له تشریعات ما انزل الله بها من سلطان ، وتلك التشریعات والاحکام هي منبع التطرف والتشدد والظلم والارهاب . بعضهم كان يفعل ذلك بحسن نية مخدوعا بصدق تلك الأقوال ، وبعضهم

كان يفعل ذلك عن جهل أو قصد ، ولكن المهم أن واجب من يحب الاسلام أن يبرئ دين الله تعالى ورسوله الكريم من كل من يخالف الكتاب الحكيم . هذه مقدمة ضرورية لموضوع الحسبة وتشريعاتها وصلتها بالقرآن الحكيم . ان احكام الفقهاء عن الحسبة تتجمع -تقريبا- في قضيابا اساسية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن خلالهما يتدخل المحتسب الرسمي أو المتطوع فى حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادلة والتعبدية ، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة ، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفریق بين المرء وزوجه ، ويتط ama بعضمهم فلا يعطي المسلم المتهم بالزنادقة -أو الخلاف في الرأي- حق المحاكمة بل يقتل حتى وإن أعلن توبته . هذه الاحكام الفقهية -التي طبق المسلمين بعضها في العصر العباسى والملوکى- هل كان يعرفها عصر النبى عليه السلام ؟ وهل كانت من تشريعات القرآن وسنة النبى وتطبيقاته عليه السلام . نرجع إلى الكتاب العزيز نحثكم إليه ..

- لقد تعامل النبى عليه السلام مع مشركين محاربين ومنافقين متآمرین وطوانث من اليهود والنصارى بالإضافة إلى المؤمنين من أصحابه ، ومن بينهم ضعاف الإيمان واقوياء الإيمان، والثابت من القرآن الكريم بل ومن التراث المكتوب في العصر العباسى أنه عليه السلام لم يعقد محاكمة للتفتيش على عقائدأى شخص مؤمن أو منافق طيلة السنوات التي قضها حاكما للمدينة ، ولم يقم بأصدار حكم بالتفريق بين رجل وزوجة بتهمة الردة والكفر . هذا مع طول ما عاناه النبى من تآمر المنافقين ومكانتهم القولية والفعالية والتي نزل القرآن يخبر عنها . إذن فان قضية الحسبة واحكامها لم تعرفها دولة النبى في المدينة بل لم تعرفها دولة الخلفاء الراشدين .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لقد جعلوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة ،

ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تشريعات القرآن له ملامح مختلفة عن تشريعات الحسبة الفقهية، فالامر بالمعروف أمر قوله والنهي عن المنكر نهي قوله، أي نصح وإرشاد باللسان فإذا أصر الشخص على رأيه فهذا شأنه طالما لا يمتد ضرره إلى الغير وحقوق الناس في الدولة والأموال الأغراض، والله تعالى يقول «يأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتدتم إلى الله مرجعكم جميعا، فينبئنكم بما كنتم تعملون : المائدة ١٥»، أي بعد النصيحة يكون الاعراض عنمن يختار الصلاة انتظارا إلى حكم الله تعالى يوم القيمة.

والنبي نفسه أمره الله تعالى أن يتبرأ من عصيان اصحابه ، إذا وقعوا في عصيان النبي ، وعصيان النبي يوصف بأنه جريمة ، والمنتظر من يقع في عصيان النبي أن يكون متهم بالكفر ، وإن تعدد له محاكم تقضي ، وإن تحكم المحاكم ببردته والتفريق بينه وبين زوجه ، حسب تشريع الفقهاء ولكن تشريع الاسلام في القرآن يقول للنبي عن اتباعه المؤمنين «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين»، أي كن هينا علينا متواضعا مع من اتبعك من المؤمنين ، فماذا يحدث إذا عصاه بعض المؤمنين ؟ تقول الآية التالية «فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون : الشعراء ٢١٦» لم يقل ه ربه فإن عصوك فاضربهم بالسلاسل والجذارير، أو اتهمهم بالكفر، أو فقل لهم إني برىء منكم ، ولكن فقل «إني برىء مما تعملون» أي برىء من أعمالهم السيئة ، وليس من أشخاصهم ، وهذه هي حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أمر ونهي باللسان فقط ، وبعده تكون البراءة من العمل السيئ وليس من الشخص المؤمن.

والملمع الثاني في تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه ليس وظيفة لطائفة معينة تحترف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسميا أو تطوعيا ، ولكن المجتمع كله يتواصى بالحق ويتوافق بالصبر، وذلك ما جاء

في سورة العصر التي تلخص ملامح المجتمع المسلم، ولذلك يقول تعالى
ببسم بالآمة الاسلامية أن تكون كلها أمة تأمر فيما بينها بالمعروف
وتنتاهي عن المنكر «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون: آل عمران ١٠٤» فالخطاب للأمة
جميعاً في هذه الآية وما قبلها وما بعدها، لأنبني إسرائيل كانوا- في
بعض عصورهم -أمة لا تنتاهي عن المنكر ، فاستحقوا اللعن على لسان
دادود وعيسي عليهما السلام «المائدة ٧٨، ٧٩». وإذا كان بنو آدم -كلهم
خطاءين- وخبير الخطائين التوابون، فليس منتظراً أن يحترف بعضهم
النصيحة للباقيين ويستنكف أن ينصحه أحد وإن فقد كان من ينطبق عليه
قوله تعالى «أتأمرن الناس بالبغي وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب
أفلا تعقلون: البقرة ٤٤». وإنما فإن تشريع «الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر» في القرآن يخالف تشريع الحسبة إذ أن حدود التدخل في حياة
الآخرين لا تتعدى النصيحة الجميل، أما في تشريع الفقهاء فالتدخل يصل إلى
درجة العقوبة بالقتل في الاتهام العقدي أو الفكري

في المجال الفكري

وفي عصر النبي كان حوله أصحاب فكر مخالف وعوائق مخالفة من
المشركين والنصارى واليهود وكانوا يذهبون للنبي ليجادلوه ، وتلك قضايا
فكريّة يعتقد كل فريق أنه على الحق وان خصوصه على الباطل ، فهل كان
النبي مسحوباً له بأن يفهم أولئك الخصوم بالكفر؟ وما هو المقطع الذي نزل
به تشريع القرآن للنبي -ولنا نحن بطبعية الحال؟ هناك من يجادل طليباً
للعلم ومنهم من يجادل عناداً وبهتانا ، والقاعدة العامة أن تكون الدعوة
بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يكون المجال بالتي هي أحسن «النحل ١٢٥»
، ولكن الذي لا يؤمن بآيات الله لا فائدة من المجال معه، لذلك يأمر الله
تعالى النبي الكريم بالاعراض عنهم إذا جاءوه يجادلوه « وإن جادلوك فقل

الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون : الحج ٦٨ ، ٦٩ .

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منيرة الحج ٢٠ « وأوضع أن هدفهم هو الجدال بالباطل لمجرد الهجوم على الحق » الكهف ٥٦ « وان ذلك هدف شيطاني في حد ذاته لذلك أمر الله تعالى المؤمنين بعدم الجدال معهم حتى لا يكونوا مثلهم ، يقول تعالى « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموه انكم مشركون : الانعام ١٢١ » ، إذن فالجدال بالتي هي أحسن مع من يجادل بالتي هي أحسن ، أما من يظلم الله تعالى ويكتبه بأياته فلابد من الاعراض عنه ، وارجاء الحكم إلى الله تعالى يوم القيمة . وهذا هو تشريع القرآن في الجدال مع أصحاب الفكر المخالف أو الفكر المعاند ، وليس فيه على الاطلاق اتهام بالكفر أو اقامة محاكم تفتيش .

الجدال مع أهل الكتاب

وبعض أصحاب الفكر الدينى المخالف كانوا من أهل الكتاب وقد شرع الله تعالى الا يكون الجدال معهم الا بالحسنى ما عدا الظالمين منهم فينبغي الاعراض عنهم بعد أن يقال لهم ان الله الذى نعبده ويعبدونه الله واحد ونحن له مسلمون ، يقول تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا والإله واحد ونحن مسلمون : العنكبوت ٤٦ » أى الاعراض عنهم مع الإحسان في القول والخطاب في القرآن الكريم قد يشمل خطاب الله تعالى للبشر فيما يخص ذاته العلية وما يدعى البشر نشأتها وغير ذلك ، ويشمل أيضا التشريع للمؤمنين بما ينبغى أن يكون عليه خطابهم وتعاملهم مع المخالفين في العقيدة ..فالله تعالى من حقه أن يقرر أنه لا إله إلا هو وان لا يشرك في حكم أحداً أنه لم يلد ولم يولد وليس له من المخلوقات من يشبهه

أو يكون كفوا له، جل وعلا.. ومن حقه تعالى أن يرِد على من يعتقد بان له شريكا أو زوجة ولدا ، ومن حقه تعالى أن يصفهم بالكفر والشرك والضلال ، وهذا حقه في قضية نسب ذاته العلية المقدسة جل وعلا . ولذلك انزل كتابه القرآن العظيم في تقرير الحق كي يكون حجة على الخلق .. ولكنه تعالى في نفس الوقت شرع للمؤمنين به ان يجادلوا بالتي هي أحسن مع خصومهم في العقيدة وان يعرضوا عن الظالمين منهم، وان يرجعوا الحكم إلى الله تعالى وينتظروا الحكم يوم القيمة.

وعلى سبيل المثال أوضح رب العزة جل وعلا القول الحق في عيسى عليه السلام وانه بشر مثل ادم، خلقه الله تعالى من تراب ثم قال كن فكان ، وبعد آيات عديدة تحدثت عن ميلاد عيسى وبشريته ودعوته ووفاته، نزل تشريع القرآن الحكيم للنبي عليه السلام فيمن يأتي للنبي يجادله في طبيعة المسيح بما يخالف الحق القرآني ، يقول تعالى «فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَى لِلَّهِ عَلَى الْكَانِبِينَ: إِلَّا عُمَرٌ

61» بعد ما وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين: ال عمران: 61 ، بعد توضيح الحق في قضية المسيح لم يقل تعالى للنبي- في هذه الآيات المدنية . انهم إذا جاءوك يجادلونك في المسيح فقل لهم أنتم كفرا ، وانما دعاهم إلى المناهله بأن يأتي الفريقان الابناء والنساء ثم يبتهل كل فريق إلى الله تعالى بأن تكون لعنة الله على الكاذب من الفريقين .. وهذه أقصى درجة من إرجاء الحكم إلى الله بأن يعلن الفريق الكاذب ، دون أن يصف نفسه بأنه على الحق ودون أن يصف الآخرين بأنهم الضالون .. هذا هو تشريع القرآن لنبي الاسلام عليه السلام.

لم يقل لهاقرأ عليهم الآيات التي تصف بالكفر من يقول بان الله هو ثالث ثلاثة، أو بان الله هو المسيح ابن مريم ، لأن هذه الآيات كلام الله وحكمه ، وهذا هو خطابه مع عبيده والذى لا يشارك فيه أحدا ، أما خاتم



G.G.P.
(Kub)

النبيين نفسه فهو مأمور بإرجاء الحكم إلى الله تعالى حتى فيم يجادله في طبيعة المسيح بما يخالف القرآن ، وبالتالي فإنه لا يجوز لمؤمن أن يبيع لنفسه خصوصية في اتهام الآخرين وتکفيرهم ، لأن النبي عليه السلام نفسه لم يعط هذه الخصوصية . كل ذلك في نطاق التعامل مع الفكر المعاند للإسلام.. فماذا مع المشركين المحاربين بالسلام حيث تحددت مواقفهم وهم يبذلون النفس والنفيس في سبيل عقidiتهم التي تختلف الإسلام؟ هل يجوز للنبي أن يحكم بکفرهم وكل الدلائل على کفرهم واضحة جلية؟.

مع المحاربين

إن تشريع القتال في الإسلام يكون فقط لرد الاعتداء بمثله وفي الدفاع المشروع، وفي إحدى الغزوات الدفاعية انهزم المسلمون ، وكانت غزوة أحد التي أصيب فيها النبي بجروح مختلفة حتى أشيع أنه مات قتيلاً ، وغضب النبي لما حدث فقال: «لا يفتح قوم فعلوا بنبيهم هذا»، وفي موقف كهذا من المسموح لأى شخص أن يقول مثل ذلك وأكثر ، ولكن ذلك ليس مسموحاً في شريعة الله للنبي وللمؤمنين ، لأن الحكم بالفلاح والخسران مرجعه لله تعالى وحده ، لأن الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، ولا يصح للمؤمن أن يتهم أحداً بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين ، وهكذا انزل قوله تعالى للنبي «ليس لك من الأمر شيئاً أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، والله ما في السموات وما في الأرض يغفر له من يشاء ويغفر من يشاء والله غفور رحيم : آل عمران ١٢٨، ١٢٩»، فالنبي ليس له من الأمر شيئاً لأن الأمر كله لله تعالى ، وإليه تعالى يرجع الأمر كلـه . وهو الذى يتوب عليهم إذا شاء أو يعذبهم إذا أراد على ظلمهم ، والنبي لا يعلم الغيب ، ولا يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ، لأن علم ذلك عند علام الغيوب جل وعلا، وقد مرت الأيام وأسلم خالد بن الوليد بطل المشركين في غزوة أحد، وسماته النبي نفسه سيف الله المسؤول . ومرت الأيام وأسلم أبو سفيان زعيم المشركين في غزوة أحد ،

وأبلی بلاء حسناً في موقعة البرمود .. أى من تراه اليوم معانداً وتحكم عليه بالكفر ، ماذا يدریك ما سيحدث له في الغد؟ ربما سيكون أفضل منك عند الله تعالى، ثم أن الأنبياء وهم صفوه الخلق ليس عليهم إلا البلاغ فقط وليس لهم الحكم على الناس أو اتهامهم، فذلك لله وحده وكل ما هناك: أن الله تعالى أمر النبي الكريم بأن يقول لخصومه ، «أعملوا على مكانتكم أنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون» ، ثم يقول له ربه جل وعلا «وله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله : هود ١٢١».

مع المنافقين

وقد يقول بعضهم أن النبي حين كان حاكماً على المدينة لم يكن له سلطان على اعدائه المشركين وأهل الكتاب .. فربما يكون من حقه كحاكم ونبي أن يحاكم خصوصه المنافقين .. ولكن تشريعات القرآن واحدة لا استثناء فيها ، وربما سمو التشريع القرآني يتجلّى أكثر في التعامل مع المنافقين الخاضعين للدولة الإسلامية . كان المنافقون نوعين ، نوعاً أدمى النفاق وكتم مشاعره بحيث لم تظهر من أقواله أو من أفعاله ما يتبين عن حقيقة كراهيته للإسلام وهذا الصنف توعده الله بالعذاب في الدنيا والآخرة ، ولم يكن للنبي علم بهم ، يقول تعالى «ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مربوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنتذبّهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم: التوبة ١٠١».

النوع الآخر من المنافقين أظهر كراهية للإسلام في أقوال وأفعال وحركات عدائية وتآمر وكيد للنبي وال المسلمين ، وكان تآمرهم يبلغ درجة الخيانة العظمى حين كانوا يتحالفون مع اعداء الدولة أو يتأمرون معهم ضد المسلمين وقت الحرب . وكان ذلك في نطاق المسموح طالما كانوا تحت سطوة الدولة ولم يرفعوا ضدها السلاح ولم تخرب حرکاتهم عن مجرد زوابع وتحرشات قولية .. أما إن كانوا خارج حدود الدولة مثل الاعراب المنافقين

أو هموا بحمل السلاح ضدّها هنالك فقط تكون المواجهة الحربية معهم حسبما جاء في القرآن « النساء ٨٨ الأحزاب ٦٠ » أى أنه كانت للمنافقين كافر وجماعات حرية المعارضة للدين والدولة كيّفما شاءوا .. وكان القرآن ينزل بحكم يكفرهم ويُفْسِح تأمّرهم ، ولكن يأمر النبي والمؤمنين بالإعراض عنهم اكتفاء بما ينتظرون من مصير بائس يوم القيمة اذا لم يتوبوا .

والإعراض عن أقاويل المشركين والمنافقين هو التشريع القرآني في التعامل معهم ، وهو تشريع يناقض تماماً محاكمتهم أو تكفييرهم أو عقوبتهم أو التفريق بينهم وبين أزواجهم . وهذا الإعراض عن المشركين المعاندين وأقوالهم وفعالهم تشريع ثابت سار عليه النبي والمؤمنون في مكة مع كفار قريش وفي المدينة مع المنافقين ، ومع اختلاف وضع النبي والمؤمنين بين مكة والمدينة . ففي بداية الدعوة جاء الأمر بالتبليغ وبالإعراض عن المشركين ، كقول تعالى « فاصدّع بما تؤمر وأعرض عن المشركين : الحجر ٩٤ » ، خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين : الاعراف ١٩٩ » وتكرر ذلك في آيات أخرى « الانعام ١٦ » ، « السجدة ٢٠ » ، « النجم ٢٩ » .

ونزل هذا التشريع بالإعراض عن أذى الكفرة ليكون تشريعاً عاماً للمؤمنين حتى إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، وإذا مرروا باللغو مرروا كراماً « الفرقان ٦٢ ، ٧٢ » ، وإذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبغي الجاهلين : القصص ٥٥ » .

والآيات الكريمة السابقة نزلت في مكة . وبعد أن صارت للمؤمنين دولة وقورة لم يتغير التشريع بل جاءته مصداقية التطبيق الواقع في التعامل مع المنافقين إذ كانت الآيات تنزل تأمر بالإعراض عن أذى المنافقين وتأمرهم وأقوالهم وتحركاتهم ، ونعطي أمثلة قرآنية :

- كان المنافقون يتركون السلطة القضائية للدولة الإسلامية ويحتكمون إلى غيرها ويرفضون الدولة بالتحاكم أمام النبي ويصدّون عنه صدوراً ،

وينزل القرآن يأمر النبي بالأعراض عن أولئك المنافقين ويقول تعالى
«أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم : النساء » . ٦٢

- وبعضهم كان يدخل على النبي يقدم له فروض الطاعة ثم يخرج من
عنه ليتأمر وينسب للنبي أحاديث لم يقلها ، وينزل القرآن يفضح تأمرهم
ويأمر النبي بالإعراض عنهم، يقول تعالى « ويقولون طاعة فإذا بрезوا من
عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبغيتون فاعرض
عنهم وتوكل على الله : النساء » . ٨١

- وكان المنافقون يعقدون مجالس للإستهزاء بآيات الله ودينه ورسوله
وكان مناخ الحرية في دولة النبي يسمح لهم بهذا ، بل كان النبي يحضر
أحياناً تلك المجالس حيث يخوض المنافقون مع في آيات الله ، ونزل
التشريع القرآني يأمر النبي بالإعراض عن الجلوس مع المنافقين حين
يخوضون في آيات الله ، فإذا تحدثوا في موضوع آخر فلا بأس بأن يعود
ليجلس معهم ، يقول تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض
عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تردد بعد
الذكرى مع القوم الظالمين : الانعام » . ٦٨

إذن هو تشريع بالإعراض عنهم وليس بمنعهم من الخوض في آيات الله ،
وهو تشريع بعدم الجلوس معهم حين يخوضون في آيات الله فقط ، وليس
بتحرير الجلوس معهم على الأطلاق . ولكن بعض المؤمنين استمر يحضر هذه
المجالس التي يخوض فيها أعداء النبي في آيات الله ، فنزل قوله تعالى
يذكرهم بالتشريع السابق الذي نزل في القرآن ويهددهم إن لم يقاطعوا تلك
المجالس عندما تخوض في آيات الله فإن الله تعالى سيعتبرهم كالمنافقين
والكافرين . يقول تعالى للمؤمنين « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا
سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا ترددوا معهم حتى يخوضوا في
حديث غيره إنكم إذا مثلتم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم

وامثل المؤمنون للتشرع ففقطعوا مجالس الخوض، فكان ان تحرر المافقون من كل حرج ، وحولوا تلك المجالس إلى كفر صريح واستهزاء بالله ورسوله وكتابه ونزل قوله تعالى للنبي «ولئن سألكم ليقولن إنما كنا نخوض ولنلعب قل أبى الله وأياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن شف عن طائفة منكم شف طائفة بانهم كانوا مجرمين التوبة ٦٥-٦٦».

أى ارجاء الحكم عليهم إلى الله تعالى ، هو الذى يعفو ، وهو الذى يعذب ، أما النبي فقد أمره ربه أن يعرض عنهم وعن اىذائهم له ، وقال له تعالى من قبل فى سورة الأحزاب « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع آذاهيم وتوكل على الله: الأحزاب ٤٨».

وكان مناخ الحرية يسمع لهم بهذا الإيذاء للنبي ويتحمل النبي وينزل القرآن يدافع عن النبي ويقول عن المافقين « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم : التوبة ٦٦». وهذا المناخ المتحرر جعل بعض المؤمنين يقع فى إيذاء النبي أيضاً فقال تعالى « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً: الأحزاب ٥٧» . وقال يحذر المؤمنين من إيذاء النبي « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى: الأحزاب ٦٩»، وجريمة إيذاء النبي لم يكن لها عقاب وقتوى فى تشريعات الإسلام، وذلك اكتفاء باللعنة والعقاب المنهى لمن لا يتوب.

ومن السخرية والإيذاء إلى التآمر على النبي والمؤمنين وقت الشدة فى الحروب والغزوات والتقاعس عن الدفاع عن المدينة ، ثم قيامهم بإنشاء مسجد الضرار ليكون وكرًا للتآمر ، ولم يأمر الله تعالى رسوله بحرق ذلك المسجد ، بل أمره فقط بـ لا يقوم فيه بالصلوة ، ويعنى ذلك أنه كان يحضر الصلوة فى ذلك المسجد إلى أن كشف القرآن حقيقته ، والله تعالى

وصف ذلك المسجد بأنهم اتخذوه «ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وأرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل أى وكر كامل للتخريب ، ومع ذلك فإن الاجراء الوحيد الذى نزل به تشریع القرآن هو قوله تعالى للنبي « لا تقم فيه أبداً » . ولم يعجب هذا التشریع فقهاء العصر العباسى فاخترعوا حديثاً يزعم أن النبي قام بحرق ذلك المسجد وتدميره ، والله تعالى يعلم أن ذلك التزییف سبق بالفعل النبي ، لذا قال تعالى عن ذلك المسجد « لا يزال بنیانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم : التوبة ١١٠ » أى لا يزال قائمًا ولم يتعرض للهدم والتدمير كما زعم رواة الأحادیث .. أى أنه نفس التشریع ، الاعراض عن المنافقین مهما قالوا ومهما فعلوا طالما كان الفعل لا يدخل ضمن حمل السلاح وسفك الدماء .. أو كان لا يدخل في حقوق البشر .. وعلى سبيل المثال فإن كبير المنافقین عبد الله بن أبي كان الذى تولى الحملة الداعیة الكاذبة في حديث الأفك ، وقال تعالى عنه « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم : النور ١١ » ، ومات ذلك الزعيم المنافق على فراشه ، لم يتعرض لحد الردة المزعوم ، ولم يعقد له النبي محکمة تفتیش مع أن القرآن نزل بحكم بكفره ، ولم يحكم النبي بالتفريق بينه وبين زوجاته ، وكانت له مدة زوجات.

إن النبي الذى أرسله رب العزة جل وعلا رحمة للعالمين كان رفیقاً بأولئك المنافقین الذين كانوا يؤذونه ويكيدون له ، وكان يستغفر لهم ويلبى بعض مطالبهم أصلًا في استقبالتهم وجاءه العتاب من ربہ حين استغفر لهم فقال له تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم : التوبة ٨٠ » وحين أذن لبعضهم في التخلف عن غزوة ذات العسرة قال له تعالى « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبنوا لك الذين صدقوا وتعلموا الكاذبين : التوبة ٢٣ » .

لقد ترك التشریع القرائی في الاعراض عن المنافقین دون تعریض لهم

بإلياء أو الاستتابة أو الاستمالة ، وحين تختلفوا عن الاشتراك في غزوة ذات العسرة وقطع الله مكائدتهم ، أثبأ رب العزة بأن المنافقين القاعدين في المدينة سيقابلون جيش المؤمنون في عودته يحلفون لهم باليمان الكاذبة باعذار وهيمة حتى يعرض المؤمنين عنهم، حسبما تعودوا ، وأمر الله تعالى المؤمنين بالأعراض عنهم اكتفاء بما سيحدث لهم في جهنم ، يقول تعالى: «سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون : التوبه ٩٥».

وهكذا عاش المنافقون في دولة النبي في حرية كاملة أمنين من الملاحقة والعقاب ، مع ان الديمقراطيات المعاصرة تتبع تصرفاتهم في قائمة قوانين العقوبات ، ولكن تشريع القرآن جاء بحرية لم تعرفها العصور . الوسطى ولم تعرفها العصور الراهنة ، ولذلك قام فقهاء العصر العباسى بصياغة تشريعات تتفق مع واقع العصور الوسطى والحركة السلفية الراهنة تخصص عصرنا الراهن ، عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وتريد الرجوع بما إلى تشريعات العصر العباسى في القرون الوسطى ، وتخاصم الفكر الإسلامي المستثير الذي يريد التعرف على التشريع القرآني الذي جعله الله تعالى حجة على البشر إلى قيام الساعة.

الاستتابة

ولا يتورع فقهاء السلفية عن طلب الاستتابة من يخالفهم في الفكر ، وإن اعتبروه مرتدًا ، فهل الاستتابة من تشريعات القرآن؟ وبمعنى آخر ، هل يجوز لبشر أن يستتبب واحدا أو مجموعة من البشر؟.

ان كلمة «تاب» ومشتقاتها جاءت في القرآن الكريم ٨٧ مرة ، وليس منها على الاطلاق كلمة استتاب أو استتابة ، لأن التوبة علاقة خاصة بين العبد وربه جل وعلا ، وليس لبشر حتى النبي أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبد في موضوع التوبة ، ومن يجعل نفسه واسطة بين الله تعالى



والناس يطلب منهم التوبة على يديه باسم الله فقد أساء فهم الاسلام ، ولا نقول أكثر من هذا ، وكل ما نطلب منه أن يعطينا ما يثبت أن الله تعالى أعطاه تفويضاً بأن يتلقى التوبة من العباد، أو أن يطلب منهم -باسمه- التوبة ، أو الاستتابة . وتفاصيل القرآن فيها الكفاية ، ومنها ننقل بایجاز الآتى :

١- في أمور العقيدة وخفايا القلوب حيث لا يعلم السرائر إلا الله تعالى ، فالنوبة لا تكون إلا لله وحده ، والله تعالى أمر النبي الكريم أن يعلن ذلك « قل هو رببلا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب : الرعد ٣٠ » ، أى إلىه وحده أتوب وعليه وحده أتوك وبه وحده أؤمن بجل وعلا ، هذا ما يقوله النبي وما ينبغي أن يقوله كل مؤمن ، المتاب أو النوبة يتوجه بها لله وحده.

٢- لأن النبي والبشر لا يعلمون السرائر ، ولأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور كانت النوبة على العباد صفة إلهية لله وحده ، يقول تعالى « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه : المائدة ٣٩ » ومن الذي يستطيع أن يعرف حقيقة تلك النوبة وذلك الصلاح إلا الله عالم الغيوب؟ ويقول تعالى للمؤمنين في تشريع الصيام « علم الله انكم كنتم تختاتون انفسكم فتاب عليكم : البقرة ١٨٧ » ، فمن الذي يعلم تلك الأمور الخاصة السرية غير الله؟.

٣- ولأن النوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى فإن من صفاته أو اسماته الحسنة « التواب » وقد تكرر وصفه بالتوب احدى عشر مرة .. لأن النوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، مرهونة بمشيئة الله تعالى ، يقول تعالى « ويتبوب الله على من يشاء : التوبة ١٥ » ، ويقول « لبيجزى الله الصادقين بصدقهم ويغذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم : الأحزاب ٤٢ » ، وليس لبشر أن يتدخل في مشيئة الرحمن ليتوب على شخص أو يغذب آخر.

٤- ان البشر جمِيعا امام التواب الرحيم سواسية في طلب التوبة ، كل منهم يطلبها من الله سواء كان نبيا او حتى من المنافقين او من العصاة او من الصالحين ، يقول تعالى عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهم يرفعان قواعد البيت الحرام ويدعوان الله تعالى قائلين « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم : البقرة ١٢٨ » ، ويقول تعالى عن خاتم النبيين وأصحابه من المهاجرين والانصار حين اشتد عليهم الأمر في غزوة ذات العسرة « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبواه في ساعة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم : التوبه ١١٧ » ، فالله تعالى هو الذي يتوب على الانبياء والمؤمنين لانه وحده الذي يعرف ما يدور في قلوب البشر .

والله تعالى يفتح باب التوبة للعصاة قبل الموت « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأنزلناك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكينا : النساء ١٧ » ، فالله تعالى العليم الحكيم هو الذي يقدر مدى الصدق والإنسان لدى كل ثائب ومدى عزمه على التوبة وتصميمه عليها والظروف الخاصة بكل ثائب .

إذن فالاستتابة- أو طلب التوبة- حق لله وحده ولم يعط رب العزة هذا الحق لنبي من الانبياء ، فكيف نعطي انفسنا حقا من حقوق الله تعالى الألهية؟ .

ارجاء الحكم لله يوم القيمة

إن تشریع القرآن لا يعطى لأى بشر الصلاحية في الحكم على العقائد وما فيها من اختلافات ، ولكن يرجى الحكم عليها إلى الله تعالى يوم القيمة، وقد شاء الله تعالى أن يخلق البشر مختلفين في الآراء والمذاهب والمعتقدات إلا من اعتض بالكتاب واسلم نفسه له دون هوى، يقول تعالى في تقرير سنته في الخلق واختلافهم « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربكم ولذلك خلقهم : هود ١١٨، ١١٩ .
وتاريخ البشر الدينى سلسلة لا تنتقطع من الاختلافات بين «الأديان»
وفى داخل كل «دين» وفى داخل كل طائفة ،وفى داخل كل مذهب ،ولقد
اختلف اليهود والنصارى وادعى كل منها انها على الحق وأن الاخرى على
الباطل ،وقال تعالى يرجل الحكم عليهم إلى يوم القيمة «فالله يحكم بينهم
يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون : البقرة ١١٣ .»

وفي داخل اليهود كانت ولا تزال خلافات كثيرة بعد نزول التوراة ، فقال
تعالى « ان ربكم يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون : يوئس
٩٣ » ، وقال عن اختلافهم في السبب « وان ربكم ليحكم بينهم يوم القيمة
فيما كانوا فيه يختلفون : النحل ١٢٤ .»

واختلف النصارى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وقال تعالى في تأجيل
الحكم بينهم إلى يوم القيمة « ثم إلى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه
تختلفون : آل عمران ٥٥ .»

وعن الاختلاف بين من يعبد الله وحده ومن يتخذ ولينا مع الله قال
تعالى أن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون « الزمر ٤٦ » وعن العلاقة
بين المسلمين وأهل الكتاب قال تعالى « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم
جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : المائدة ٤٨ .»

وعن علاقة النبي بمن يحاربه قال تعالى « انك ميت وانهم ميتون ثم انكم
يوم القيمة عند ربكم تختلفون : الزمر ٢٠ ، ٢١ .» أو يقول لهم في حواره
معهم « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم : سبا
٢٦ » ، وقال الله تعالى للنبي فيمن يجادله بالباطل وان جادلوك فقل الله
اعلم بما تعلمون ، والله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون :
الحج ٦٨ ، ٦٩ .»

والبشر ليسوا فقط المسلمين وأهل الكتاب ، بل كل أولاد آدم ، وقد تأجلت

خلافاتهم الدينية إلى يوم القيمة ، يقول تعالى عن كل نفس بشرية « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : الانعام ١٦٤ » وعن الحكم بين البشر جميعا يوم القيمة يقول تعالى يأمر النبي باعلان هذه الحقيقة « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون : الزمر ٤٦ ». .

ونكتفي بهذا القدر من آيات القرآن التي تؤكد أن الخلافات الدينية بين البشر مرجعها إلى الله تعالى وحده يوم القيمة ، وهذا ما يسرى على الانبياء أنفسهم . فهل يجوز بعد هذا ل المسلم محب لدينه أن يدعى لنفسه خصوصية من خصوصيات رب العزة؟ .

ان أمور العقيدة مرجعها إلى الله تعالى يوم القيمة ، ولكن هناك حقوقا للبشر في الدماء والأموال والأعراض ، ومن يقترب جنابه على غيره فالعقوبات تنتظره من المجتمع في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك تشريع الله سبحانه وتعالى في ضبط حركة المجتمع ، وهنا يكون مجال القضاء البشري في حماية حقوق الأفراد مع الالتزام بتشريع القرآن وسريانه على الأمير والاجير دون تحريف أو تزييف ، وعلى سبيل المثال فقد توسعوا في عقوبة القتل - وهي في القصاص فقط وجفلوها تشمل الزنا في حالة الاحسان ، وتشمل ترك الصلاة والخروج عن الجماعة ، ونسوا حرص الاسلام على حفظ الدماء .

التفریق بین الزوجین

يذعن الذاهبون بان من تشريعات الاسلام التفریق بین المرتد وزوجه ، وقد سبق أن المناقين الذين حكم الله تعالى بكفرهم، لم يحكم بالتفريق بینهم وبين ازواجهم ومفهوم « التفریق بین المرء وزوجه » جاء بهذا النص في القرآن الكريم في موضعين :

الأول: في قوله تعالى في تشريع الطلاق «فامسكونه بمعرفة أو فارقوه بمعرفة : الطلاق ٢» ، وقوله تعالى «وَان يتفرقا يغْنِ اللَّهُ كُلَا مِن سُعْتِهِ : النَّسَاءِ »، والواضح هنا أن قرار التفريق راجع للزوج أو للزوجين معاً ، وليس من طرف خارجي لا شأن له بالموضوع.

الثاني: في قوله تعالى عن آئوان الشياطين أصحاب الأعمال السحرية المزعومة «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرَقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ : البقرة ١٠٢» هنا، يأتي التفريق بين الزوجين من عامل خارجي ، أو تدخل شيطاني يزيد أحد الزوجين أو كليهما كراهية الآخر والله تعالى يتوعد صاحب هذا العمل بسوء وبأته لا خلاق له واته بثمن الذى باع به نفسه للشيطان. إلى هذا الحد يبلغ حرص القرآن على سلامة الحياة الزوجية وأن تكون بمنجاة من التدخل الخارجي الذى يهددها ، بل إن القرآن جعل من واجب المجتمع أن يتدخل لاصلاح ما بين الزوجين إذا احتم الشقاق حتى يوفق الله بينهما «النساء ٢٥» ، فالتدخل الخارجي يكون للاصلاح فقط وليس لتخرير البيوت.

والزواج أقدم شريعة إلهية ، إذ هو البديل المشرعى للزناء والبغاء المحرم ، والله تعالى أخبر بان أكثرية البشر يختلط لديها الإيمان بالشرك «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون: يوسف ١٦» ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين : يوسف ١٣» ، فهل يكون زواج أكثرية البشر باطل؟ ولكن الاعتقاد القلبي شئ وتشريع الزواج شئ آخر ، فالشرك يتزوج زوجا شرعاً صحيحاً بغض النظر عن عقيدته ، واجداد النبي عليه السلام عاشوا قبل الإسلام وفي وسط مجتمع مشرك ، ومع ذلك فإن النبي عليه السلام جاء من نكاح شرعى عبر الآباء والأجداد ، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته وقبل أن تأتيه الرسالة تزوج محمد بن عبد الله زوجاً شرعاً من السيدة خديجة ، وكذلك فعل أصحابه ، ولم يحدث بعد الإسلام أن نزل تشريع يعتبر

الزيجات السابقة فاسدة لأنها تمت في مجتمع مشرك ، ولكن الذي حدث أن القرآن اعتبر كل الزيجات السابقة للاحياء والأموات زيجات شرعية وافتخر العرب بحفظ انسابهم عن طريق ذلك الزواج الذي كان قبل الاسلام ، واستمر الصخابة بنفس الزواج ويحمل أولادهم نفس الانساب بل ان تشرعيات القرآن في الزواج جاءت بتعديلات كلها في صالح المرأة ، ولكن لم يتعرض لكيفية عقد الزواج ، لأن الكيفية كانت ولا تزال شرعية.

بل هناك أكثر من ذلك ، فقد جاءت التعديلات التشريعية في القرآن بتحديد المحرمات في الزواج من الام والبنت والاخت وخلافه ، وبعض هذه التعديلات كانت تمس حالات محدودة كانت موجودة عند نزول ذلك التشريع في المدينة ، وأعني بذلك ما كانت الجاهلية تبيحه من زواج الابن من تزوجها ابوه من قبل ، ومن جمع الزوج بين الاختين في الزواج . نزل القرآن يحرم ذلك ويقول « ولا تنكحوا ما نكح اباوك من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وقال في تحريم الجمع بين الاختين في الزواج « وان جمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف : النساء ، ٢٢ ، ٢٣ ». ،

لقد اعتبر القرآن زواج الابن من مطلقة أو أرملة ابيه فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، وتلك صيغة مشددة في التحريم ، كما حرم أيضا الجمع بين الاختين في الزواج ، ومع ذلك فقد استثنى من التحريم تلك الحالات الفردية التي سلفت وكانت موجودة حين نزل التشريع القرآني ، وأصبح التحريم متعلقا بأى حالة تأتى بعد نزول ذلك التشريع ، والمعنى أن القرآن لم يحكم بالتفريق في تلك الحالات الفردية المعدودة ، وكان يمكن التضخيبة بها في سبيل قانون إلى مستمر إلى قيام الساعة ، ولكن إلى هذا الحد بلغ حرم القرآن على استمرار الاسرة حتى لو كانت تخالف تشريع القرآن ، فنزل التشريع السارى ولكن مع استثناء بالبقاء على تلك الاسر القليلة العدد . وهكذا لا نجد على الاطلاق في تشريع الاسلام تفريقا بين زوجين في المجتمع

المسلم المسالم الآمن.

وهناك حالة استثنائية بالغة الخصوصية تعرض لها المسلمين والمشركون بعد الهجرة، فقد هاجر رجال للمدينة ورفضت زوجاتهم الهجرة تمسكاً بالدين والوطن، وهاجرت نساء للمدينة وتركن أزواجهن تمسكاً متهن بالاسلام وأصبحت المدينة ومكة في حالة حرب، وتم الانفصال التام بين أولئك الرجال والنساء، وكان لابد أن ينزل تشريع يتحول به الانفصال الفعلى إلى فراق شرعى حتى تتزوج المشركة في بلدها من مشرك في مكة، وحتى تتزوج المسلمات والمسلمون المهاجرون في المدينة. ونزل حكم الله بأن يدفع الرجال منهور النساء للزواج السابقين، يفعل ذلك المؤمنون والمشركون، ويبدأ زواج جديد بعد اتمام الفراق الواقعى، وذلك ما جاء في سورة المحتنة التي نزلت بتحرير الموالة بين المسلمين والمشركون المعتدلين، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين والمشركين المعتدلين، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين والمشركون إلى نزول هذا التشريع، فهو تشريع لبناء الاسر وليس للتفريق بين الزواج، لأن التفريق كان واقعاً مؤلماً وكان يستلزم حلاً، وجاء الحل. وتذكر كتب السيرة ان ابنتين لابن لهب كانوا على وشك الزواج ببنتين للنبي، ثم تركاهما بتأثير أبي لهب وأم جميل، وتذكر السيرة أيضاً أن زينب بنت النبي تزوجت من مشرك بلغ من اخلاصه لعقيدته انه اشتراك مع المشركين في موقعه بدر، ثم اسره المسلمين، وبعثت زوجته بنت النبي بعقد لتفتدى به زوجها من ابيها إلى المدينة، أى أنها بقيت مع زوجها في مكة ولم تتركه لتهاجر مع ابيها إلى المدينة، مع اسلامها، ثم تركت زوجها فيما بعد، وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمناً، المستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد، وأنه ليس في تشريع الاسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختار ذلك وافتقر عن بعضهما بمحض ارادتهما، والله المستعان.

الديوان الصغير

الحساب بين الدولة

المدنية والدولة الدينية



**مركز المساعدة القانونية
لحقوق الإنسان**

تم إعداد الدراسة التالية قبل أن يذاع مشروع القانون المنظم لدعوى الحسبة. وبمراجعة النص الكامل لهذا المشروع ومذكرته الإيضاحية كما نشر في جريدة الجمهورية بعدها الصادر في ١٩٩٦/٢٧ ، نجد أن تلك المذكرة - بعد أن تستعرض فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفكرة الإخلال بحقوق الله تعالى أو بالحقوق التي يقلب فيها حق الله تعالى- تنص على أنه : «لكل مسلم استدعاء القاضى مبلغاً إياه بوقوع إخلال بحق الله تعالى ، أو بتلك الحقوق التى يكون حقه غالباً فيها ، وإشهاده عنده بوقوع هذه المخالفة ، لإثبات ما يلزم لتقويمها عند ثبوتها».

لا يجد المركز ثمة ما استجد بحيث يدفعه لإعادة النظر في هذا التقرير لأن ما تضمنه المشروع ومذكرته الإيضاحية ، إنما يؤكد بجلاء واضح صحة الاستنتاج الذى يخلص إليه التقرير من أن دعوى الحسبة إنما فى حقيقتها تعكس رؤية طائفية وتقيم تعيزاً على أساس دينية ضد المواطنين غير المسلمين ، كما تقيم من الناحية الأخرى تعيزاً قائماً على أساس الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

كما تتعارض مع حقيقة أن مجتمعنا المعاصر قائم على أساس قومية ، ولم يعد يتخذ من الديانة أساساً له فالحسبة كمفهوم ، وكتنظام ، وكدعوى لم تعد تتتسق مع حق المواطن المعاصرة ،أى لم تعد تتتسق مع الدولة الدينية ، وإنما تتتسق كاملاً الاتساق مع الدولة الدينية ، وبشكل خاص مع الدولة الدينية التي لا تعرف تعدد الإيمان كمجتمعنا المصري المعاصر.

١-تعريف الحسبة وتطور نطاقها:

عرف الإسلام نظام الحسبة، بوصفها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اقتصر عمل المحتسب على ما يتعلق بالغش والتسليس، وهو ما ينعكس على معناها الشرعي، فأنصل الحسبة الشرعية مشارفة السوق(شارف الشيء: قاربه ودنا منه) والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الغش والتسليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله حمل الماطلين على الإنصال وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إثبات حكم وكأنها أحكام ينزله القاضى عنها لعمومها وسهولة اغراضها. فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة نি�قوم بها فوضعنها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء.

تطور نطاق الحسبة ليصبح أمراً معروفاً ظهر تركه ، ونهيا عن منكر ظهر فعله ، وإصلاحاً بين الناس (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- القاهرة- دار الفد- ص ٦٤ حتى ٦٠٥).

من العصور ، ولكن لما صار نظر السلطان عاماً في السياسة ، اندرجت في الوظائف التابعة له ، وأفردت بالولاية . وقد أدى إنسلاخ ولاية الحسبة عن القضاء واعتبار سلطة المحتسب مستمدّة من سلطة الخليفة، إلى مساوىٌ كثيرة، من أهمها تنافر الاختصاص بين الولايات ، وافتياض المحتسبين ، ورجال الشرطة ، على اختصاصات القضاة، كما أدى إلى قيام السلطانين بتسيير المحتسبين لتحقيق مأربهم الخاصة، لدرجة قيامهم بمنع المصريين من كثرة الكلام ، لما اشتهروا به من السخرية بالمالكية وسلاطينهم (دعواى الحسبة- د. حسن الليبيدي- مركز الطباعة والنسخ- أسيوط ١٩٨٢- ص ١٦٨- ١٦٩).

٢- تعريف المحتسب:

هو الذي يقوم بوظيفة الحسبة وهو من أرباب الوظائف الدينية، وقد ثبت أن الرسول هو أول من استعمل المحتسب في نظامه ، حيث تولى ذلك الأمر بنفسه فكان يتقدّم الأسواق ويأمر وينهى، كما ثبت أنه استعمل من أصحابه من يقوم بهذا الأمر حيث استعمل سعيد بن العاص على سوق «مكة المكرمة» واستعمل عمر بن الخطاب على «سوق المدينة المنورة» (الموسوعة ٦١٦ و ٦١٧) إلا أن لفظ المحتسب لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المأمور العباسي (١٥٨- ١٦٩هـ). (الموسوعة- ص ٦٠٥).

٣- نوعاً ولادة الحسبة:

تنقسم الحسبة من ناحية أسباب ولادتها إلى ولادة أصلية (المتطوع) وولادة تبعية (المحتسب).

أ- الولاية الأصلية (المتطوع):

وهي التي تستمد أساسها من تكليف الشارع بها لكل من تتوافر فيه الأخلاقية الالزامية للقيام بها، وذلك في الحالات التي يكون فيها المكلف أولى الناس بإيانته الحكم إليه في القيام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على من ولاهم عليه عليه كزوجته وأولاده ، أو المرءوسين له في العمل فهو بحكم ولادته عليهم يعد من أولى الناس بإيانته القيام بها إليه (عن الحسبة ودور الفرد فيها- د. عبد الله مبروك النجار- كتاب مجلة الأزهر- شهر ذى الحجة ١٤١٥ هـ ص ٥٣).

ب- الولاية التبعية (المحتسب):

وهي الولاية المستمدّة من قرار التعيين الصادر من الخليفة أو الأمير ،

وتتضمن هذه الولاية كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الطلب مباشرة ، وتتضمن كذلك القيام بما يؤدي إلى اجتناب المنكر ، لا على وجه الطلب ، بل على وجه الادعاء والاستدعاء ، وذلك بالتقدم إلى القاضى بالدعوى ، وبالشهادة لديه ، أو باستدعاء المحتسب (النجار- من ٥٤).

جـ- الفرق بين سلطات المتطوع والمحتسب:

ـ١ـ فرض الحسبة متعمق على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على المتطوع من فروض الكفاية.

ـ٢ـ قيام المحتسب بالحسبة واجب لا يجوز أن يتشارغل بغيره ، وقيام المتطوع بالحسبة من نوافل الأعمال يجوز تشارغه عنه لغيره.

ـ٣ـ المحتسب منصوب للاستدعاء إليه فيما يجب إنكاره وإبلاغه بالمخالفات التي تقع من المنحرفين ، والمتطوع ليس منصوباً للاستدعاء.

ـ٤ـ من واجبات وظيفة المحتسب أن يجيب طلب من استعدى به وأبلغه بالجريمة أو المخالفة ، وذلك ليس على المتطوع.

ـ٥ـ على المحتسب أن يبحث عن المكررات الظاهرة ، ليصل إلى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ، ليأمر بإقامته ، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

ـ٦ـ للمحتسب أن يتخد على الإنكار أعنواناً ، لأنه منصوب لهذا العمل . وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعنواناً.

ـ٧ـ للمحتسب أن يعزز على المكررات الظاهرة ، ولا يتجاوزها إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزز على منكر.

ـ٨ـ للمحتسب أن يرتفق من بيت المال فيأخذ أجره من الدولة ، وليس للمتطوع أن يأخذ أجراً على عمله.

ـ٩ـ للمحتسب أن يجتهد فيما تتعلق بالعرف دون الشعـع ، فيذكر ما أداه إليه اجتهاده ، وليس للمتطوع ذلك.(النجار- من ٥٥ و ٥٩).

دـ- شروط المحتسب:

لقد أوصلها بعض الفقهاء إلى سبعة شروط يجب أن تتوافر في المحتسب ، وسنحصر كلامنا هنا على شرط إسلام المحتسب وشرط الذكورة

*** إسلام المحتسب:**

يجب أن يكون المحتسب مسلماً، ذلك أن الحسبة عمل يتضمن تنفيذ أحكام إسلامية تتمثل بالعقيدة الدينية ، أو تستمد أحكامها من مصادر التشريع

الإسلامي في الكتاب والسنة والإجماع (النجار-ص ٥٨). وبالنسبة لدعوى الحسبة تحديداً يكيف القهاء هذا الشرط على النحو التالي: لما كانت دعوى الحسبة نوعاً من الشهادة فإنه يتشرط فيمن يدعي حسبة الشروط التي تطلب في الشهادة . ومن شروط جواز قبول الشهادة في الشريعة الإسلامية أن يكون الشاهد مسلماً لأن في الشهادة ولایة، ولا ولایة لكافر على مسلم (نظريّة المصلحة في الدعوى-د. عبد المنعم الشرقاوي -القاهرة - ط أولى ١٩٤٧ - ص ٣٧٩).

* شرط الذكورة:

ذهب طائفة من أهل العلم إلى اشتراط الذكورة، فيمن يتولى الحسبة ، وقالوا أن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس ، ولا أن تخالط الرجال أو تفاوضهم مقاومة التظير للنظر، وعند أبي حنيفة تلى الحكم فيما تجوز لها فيه الشهادة (النجار-ص ٦٧) ويشرط في بعض الأمور كالحدود أن يكون الشاهد ذكراً (الشرقاوي-ص ٣٨) وقد ذهب البعض إلى اجازة أن يكون مدعى الحسبة إمرأة بدون أى قيود (اللبيدى-ص ١٦٨).

٤- دار الحسبة:

أول من أنشأها عمر رضي الله عنه ، حيث ولى عبد الله بن عقبة على النظر في الأسواق والتقتيس على المكاييل والموازين ومنع الغش فيما يباع ويشترى (الموسوعة-ص ٦٠.٥) وفي العهد العثماني استبدل باسم دار الحسبة اسم البلدية وباسم المحتسب رئيس البلدية (الموسوعة-ص ٦٢٤).

٥- دعوى الحسبة:

تكون في حقوق الله تعالى أو فيما غلب فيه حق الله وهي الحقوق التي يجب على كل مسلم الحافظة عليها ، وعرفها البعض بأنها استدعاء من له ولایة القضاء بوجود مخالفة لحق من حقوق الله تعالى أو لحق غلب فيه حق الله تعالى، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة سواء بطريق الرفع ، أو بطريق الدفع، لاتخاذ ما يلزم بالنسبة لها (اللبيدى-ص ٦).

٦- حقوق الله في لغة القانون المعاصر:

الكثير من الباحثين الإسلاميين، عند تناوله لنظام الحسبة يجعل حقوق الله مرادفة لفكرة النظام العام والأدب العامة المعامل بها في نطاق القانون الوضعي المعاصر . فاللبيدى مثلاً يذهب إلى أن القانون المعاصر قد عبر عن فكرة حقوق الله، بأنها تلك الحقوق التي ترتبط بالنظام العام والأدب العامة

في المجتمع ، حيث اعتبر القانون المعاصر بعض هذه الحقوق لصيقة بشخصية الإنسان لا يجوز له التنازل عنها ، وربط بعضها الآخر بفكرة النظام العام والأداب العامة ، فلا يجوز للفرد الاتفاق على ما يخالف مقتضيات النظام العام ، حتى لو كان في ذلك تفضحية بمصلحته الخاصة ، وتشكل فكرة النظام العام والأداب ، قدرًا من القواعد ، تمثل الحد الأدنى من القواعد الازمة لحماية المجتمع من الانحلال (اللبيدي - ص ٥٤).

وهنا نجد مفارقة ففكرة النظام العام العلمانية نجدها تتحول إلى فكرة حقوق الله ، وهي فكرة دينية عقائدية فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من العتقدات الدينية والثانية تخاطب أتباع دين محمد ولا تخاطب جميع المواطنين . وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الديني لفكرة حقوق الله ، أو جرينا غير المسلمين من حق المواطن ، أو على الأقل اعتبرناهم يتمتعون بحق مواطنة منتقص . كما ينتقص من حق المرأة المسلمة مقارنة بالمواطن المسلم . وبعبارة أخرى : قبول مبدأ تأسيس الدولة على أساس دينية . إن تصور القائلين بضرورة تعميم دعوى الحسبة في كل فروع القانون المصري إنما ينطوي على رفض تأسيس الدولة المدنية الحديثة والمطالبة بتأسيس الدولة الدينية .

٧- توسيع القضاء الإداري في شرط المصلحة لا علاقة له بدعوى الحسبة : من المبادر المستقرة في فقه القانون : أنه حيث لا مصلحة فلا دعوى ، وهو ما نص عليه صراحة في المادة الثالثة من قانون المرافعات وفي الفقرة الأولى من المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة . وإن كان هذا لا يمنع من اختلاف نطاق ومدلول مفهوم المصلحة بين فقه القانون للخاص وفقه القانون العام ، بل من الممكن أن يختلف هذا النطاق من مجال قانوني إلى آخر في داخل ذات الفقه . ففي قانون المرافعات نجد أن المصلحة التي تبرر قبول الدعوى يجب أن تستند حق امتدى عليه أو مهدد بالاعتداء عليه . وهي ذات القاعدة التي تسري على دعوى التعويض أمام القضاء الإداري (دعوى القضاة الكامل) حيث يشترط في رافعها أن يكون صاحب حق أصابته جهة الإدارة بقرارها الخاطئ بضرر يراد رتبه وتتوسيطه عنه . في الحالتين ربط بين المصلحة والحقوق الشخصية . أما في دعوى الإلغاء أمام القضاء الإداري فنجد فصلاً تاماً بين المصلحة والحق وترتبط المصلحة هنا بالمركز القانوني . حيث لا يشترط في المصلحة التي تبرر قبول الدعوى أن تستند إلى حق لرافعها اعتدت عليه

السلطات العامة، أو مهدد بالاعتداء عليه بل يكفي أن يكون ذا مصلحة شخصية و مباشرة في طلب الإلغاء والمصلحة الشخصية هنا معناها أن يكون رافع الدعوى في مركز قانوني خاص أو حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعله -ما دام قائما- مؤثرا في مصلحة ذاتية للطالب تأثيراً مباشراً.

وقد توسيع القضاء الإداري في تطبيقه لشرط المصلحة في دعاوى الإلغاء فاكتفى في حالات بقبول الدعوى تأسيا على مجرد توافر صفة المواطن لرافعها، فيكفي هذا ليكون له مصلحة شخصية مباشرة في الطعن على القرار محل البحث. قضت محكمة القضاء الإداري بتاريخ ١٩٨٠/٤/١ في الدعوى رقم ٦٩٢٧ بأنـه: «من المقرر أن صفة المواطن تكفي في بعض الحالات لاقامة دعوى الإلغاء طعنا في القرارات الادارية التي تمس مجموع المواطنين المقيمين في أرض الدولة وتعرض مصالحهم أو صحتهم أو مستقبليهم للأخطار الجسيمة». وكانت الدعوى تتعلق بدفع النفايات الذرية في الصحراء المصرية (المليدي - هامش ص ٢٨).

وهذا التوسيع في مفهوم المصلحة الشخصية لا يجعل دعوى إلغاء دعوى حسبة، لأن دعوى الإلغاء مازالت تستلزم المصلحة الشخصية المباشرة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فديانة المدعى لا دخل لها في تحديد قبول الدعوى أو عدم قبولها طالما أن هذه الديانة لا دخل لها في تحديد مركزه القانوني، وهو الأمر الذي يأخذ وزنا مختلفا في دعاوى الحسبة، فرافعها يجب أن يكون مسلم الديانة، وإذا رفعها غير المسلم تعين عدم قبولها طالما لم يقدم المتسكون بتطبيق دعاوى الحسبة في التشريع المصري الوضعى الراهن اجتهايا جديدا يتزع عن دعاوى الحسبة. غلافها الطائفى الدينى لتصبح متتفقة مع حقائق مجتمعنا المعاصر.

إن كل من فحصنا مساهمتهم في دعاوى الحسبة من المحظيين المنتسبين للفكر الإسلامي ، وجذبناهم يدللون على أن القضاء الإداري المصري قبل دعاوى الحسبة مستشهدين بأحكام في دعاوى الإلغاء متဂاهلين مناقشة الفضائح بين التوسيع في مفهوم المصلحة وبين دعاوى الحسبة. انظر في ذلك : النجار من ١٩٦٥ وما بعدها ، واللبيدي ص ٥٧ وما بعدها ، ود. سليم العوا - جريدة الشعب ، وفهمي هويدى - جريدة الاهرام . ولذلك سنعرض بالتفصيل لحكم المحكمة الادارية العليا ليوضح خطأ هذه

الاستشهادات
دراسة حالة:

فى ٢٢/٣/٧٨ أقام الأستاذ عبد الحليم رمضان الدعوى رقم ٥٥٩ لسنة ١٩٦٣ ق يطلب فيها الحكم بإلغاء القرار الصادر من رئيس الجمهورية بمنح أحد المستشارين نائب رئيس مجلس الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى على سند من أنه ما زال يتبوأ مقعد القضاء وتعرض عليه فى ساحته عشرات القضايا ضد مانع الوسام وبرر توافر الصفة لديه بالقول أنه من أحد المحامين ومن أحد المواطنين والمتقاضين.

ووقفت هيئة قضايا الحكومة: «بعدم قبول الدعوى لانتفاء المصلحة والصفة تأسيساً على أن أحكام القضاء الإداري قد اضطررت على أنه يلزم لقبول دعوى الإلغاء أن يكون للمدعي فيها مصلحة شخصية مباشرة . وذلك بأن يكون المدعي في مركز قانوني خاص بالنسبة للقرار المطعون فيه من شأنه أن يجعل هذا القرار مؤثراً فيه تأثيراً مباشرأ . وقد نصت الفقرة (أ) من المادة (١٢) من قانون مجلس الدولة على أن لا تقبل الطلبات الآتية:

(أ) الطلبات المقدمة من أشخاص ليس لهم فيها مصلحة شخصية ، ويبين من ذلك عدم توافر المصلحة أو الصفة في رافع الدعوى لأن القرار المطعون فيه لا يمس أي حق من حقوقه أو مركز قانونياً له: (من ١٢٨ من نص الحكم في الطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧٩٣ ق الصادر من المحكمة الإدارية العليا في جلسها المنعقدة في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٢ - والمنشور في مجموعة المبادئ القانونية التي قررتها المحكمة الإدارية العليا - السنة ٢٩ - العدد الأول - إصدار المكتب الفنى لجلس الدولة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨ - من ص ١٢٥ : ١٢٢ - ومبين قرير كل مقتطف رقم الصفحة الموجود بها من المجلد المذكور). وبجلسة ٩ يناير ١٩٨١ حكمت المحكمة بعدم قبول الدعوى . وأقامت قضاها على أساس أن المدعي تنتفي مصلحته في الطعن على القرار المشار إليه ، فهو لا يؤثر في مصلحة شخصية له تأثيراً مباشرأ حتى يقبل منه طلب إلغائه ، وذهبت المحكمة إلى صحة القول بأن تشريعات السلطة القضائية ومجلس الدولة هي من فروع القانون العام المنظمة لولاية المحاكم وولاية القضاء والقضاء إلا أن ذلك لا يخول لأى مواطن الحق في الطعن على القرار الصادر بالمخالفة لأحكامها ، ذلك أن القوانين التي يترتب على مخالفتها بطلان القرارات الإدارية هي بحسب الأصل من تشريعات القانون

العام ، ومع ذلك لا يقبل الطعن على القرارات الادارية إلا إذا مسست مصلحة شخصية مباشرة لطالب الإلغاء ، ولا يقبل الطلب من أي شخص لمجرد أنه مواطن يهمه إنفاذ القانون المتعلق بالنظام العام وحمايةصالح العام وإلا أصبحت دعوى الإلغاء من قبيل دعوى الحسبة (من ١٢٨-١٢٩).

وفي ٤ أبريل ١٩٨١ طعن المدعى على هذا الحكم بالطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ وأسس طعنه عما يتعلق بقضاء محكمة أول درجة بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة على ركيزتين هما:

الأولى: تستند على الحسبة، وذهب الطاعن إلى «أن الحسبة في شريعة الإسلام التي جعلها الدستور المصري المصدر الرئيسي للتشريع ، لم تشرع دعواها إلا لحماية النظام الاجتماعي والأخلاقي ، أى لحماية النظام العام والأداب العامة بالتعبير القانوني المعاصر. وأردف الطاعن أن أحكام التنظيم القضائي لمجلس الدولة والسلطة القضائية تعتبر من فروع النظام العام، فإذا نصت المادة ١٢٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ - وتقابليها المادة ٦٨ من قانون السلطة القضائية - على تحريم معاملة عضو مجلس الدولة بأية معاملة استثنائية ، فإن هذا النص وهو يتعلق بالنظام العام ، يحرم الحكم على خلافه - ويغدو للطاعن الصفة والمصلحة في الطعن على القرار المطعون فيه (ص ١٢٩).

والركيزة الثانية تستند على توافر المصلحة الشخصية المباشرة للطاعن بوصفها مناط الصفة حيث ذهب إلى أنه «بصفته محاميا يتعامل مع دائرة منازعات الأفراد والهيئات بمجلس الدولة- التي يرأسها السيد المستشار - في العديد من قضاياه المقامة على رئيس الجمهورية مائج الوسام المذكور . ومن ثم فإن للطاعن مصلحة في نقاط قضيه وتجده وحيدته »(ص ١٢٩).

وبجلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ حكمت المحكمة الادارية العليا « بقبول الطعن شكلاً وفي موضوعه بالغاء الحكم المطعون فيه وبقبول الدعوى شكلاً ويرفضها موضوعاً وألزمت المدعى بالتصروفات »(ص ١٣٣).

ورفضت تأسيس حكمها بقبول الدعوى لتوافر الصفة على الحسبة وأأسست هذا القضاء على توافر المصلحة الشخصية المباشرة لرافع الدعوى ، أى رفضت الركيزة الأولى التي استند إليها الطاعن في طعنه ، وقالت المحكمة تعليقاً لهذا الحكم ما نصه: « ومن حيث أنه ولثن كانت المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ تنص على أن « لا

تقبل الطلبات الآتية

(أ) الطلبات المتقدمة من أشخاص ليست لهم فيها مصلحة شخصية.

(ب) ...

وقد أطردت أحكام المحكمة الإدارية العليا على أنه يجب أن تكون تلك المصلحة شخصية و مباشرة- إلا أنه في مجال دعاوى الإلغاء وحيث تقتضي هذه الدعوى بقواعد اعتبارات المشروعية والنظام العام فإن القضاة الإداري - يوازره الفقه- لا يقف في تفسير شرط المصلحة الشخصية عند ضرورة وجود حق يكون القرار الإداري المطلوب إلغاؤه قد أهدره أو مسه- كما هو الحال بالنسبة لدعوى التعويض وسائر الدعاوى الحقوقية - وإنما يتتجاوز ذلك بالقدر الذي يتافق ويسهم في تحقيق مبادئ المشروعية وإرساء مقتضيات النظام العام ، بحيث يتسع شرط المصلحة الشخصية لكل دعوى إلغاء يكون رافعها في حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعل هذا القرار مؤثراً في مصلحة جدية له . وجدير بالذكر أن اتساع نطاق شرط المصلحة الشخصية في دعوى الإلغاء على النحو السابق لا يعني الخلط بينها وبين دعوى الحسبة ، فلا يزال قبل دعوى الإلغاء منوطاً بتوفيق شرط المصلحة الشخصية لرافعها.

ومن حيث أنه بتطبيق ما تقدم على الدعوى الماثلة ، يبين أن المدعى يبرر مصلحته في إقامة دعواه بأنه بصفته محامياً له عديد من القضايا التي أقامها أمام محكمة القضاة الإداري ، وتنظرها دائرة (متنازعات الأفراد والهيئات) التي كان يرأسها السيد المستشار في تاريخ منحه الوسام المنوه عنه ، ويختصم فيها رئيس الجمهورية - بصفته - فإن له مصلحة في الطعن على قرار منح الوسام ضماناً لنقاء قضيه وتجربته .

ومن حيث أنه في حدود ما تقدم تبدو للمدعي مصلحة شخصية في أن يقيم دعواه الماثلة ، مستهدفاً منع ما قد يكون من شأنه التأثير على حيدة القاضي أو تجرده أو استقلاله ، وليطمئن وسائر المتلقين إلى سير العدالة على النهج الذي أمر الله به واستقرت عليه كافة النظم والشرائع ، لستقييم موازين القسط في يد العدالة « (١٢٩-١٣٠) .

-٨- السند التشريعي لدعوى الحسبة:

تضمنت لائحة المحاكم الشرعية والمصادر بالمرسوم بقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ ، وهي اللائحة المنظمة لسير العدالة في المحاكم الشرعية المعروفة

حيينذاك والتي تتولى الفصل في منازعات الأحوال الشخصية ، السندي التشريعي لدعوى الحسبة في المادتين ٨٩ و ١١٠ من الفصل الثالث المعنون «في سماع الدعوى» من الباب الثاني المخصص لقواعد المرافعات من الكتاب الرابع المعنون في الإعلانات وقيد الدعاوى وتقديم المستندات والمرافعات والأدلة والحكام وطرق الطعن فيها:

فالمادة ٨٩ نصت على : « لا تسمع الدعوى إلا على خصم شرعى حقيقى » فى حين جرى نص المادة ١١٠ على أنه: «إذا حضر المدعى أو وكيله فى الميعاد المعين وسمعت الدعوى والجواب عنها ودفعها المدعى عليه بدفع يعتبر دعوى مستقلة ، ثم تختلف المدعى بعد ذلك ولم يرسل وكيلا عنه فى الميعاد المعين فللداعى عليه الخيار إما أن يطلب اعتبار القضية كان لم تكن وإما أن يطلب السير فى دعوى الدفع بالطريق الشرعى ويعتبر المدعى عليه مدعيا والمدعى مدعيا عليه.

وهذا إذا لم يكن الدفع من حقوق الله تعالى أما إذا كان من حقوق الله تعالى فيجب على المحكمة أن تسير فيه بالطريق الشرعى .

٩- إلغاء السندي التشريعي لدعوى الحسبة والاختلاف في تفسير مدى هذا الإلغاء:

أثنى القانون ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ ليلى العديد من مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ومن ضمنتها المادتين ٨٩ و ١١٠ اللتين تمثلان السندي التشريعي لدعوى الحسبة ، وبذلك أصبحت اللائحة خلوا من أي سندي تشريعي لدعوى الحسبة . وخضعت بذلك منازعات الأحوال الشخصية لقواعد قانون المرافعات فيما يتعلق بشروط قبول الدعوى ، طالما لم تعد هناك قواعد خاصة فيما تبقى من اللائحة أو القوانين المكملة لها تنظم هذا الموضوع ، وذلك تطبيقا لأحكام المادة الخامسة من القانون ٤٩٢ لسنة ١٩٥٥ والتي نصت على :

« تتبع أحكام قانون المرافعات في الإجراءات المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية والوقف التي كانت من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس المالية عدا الأحوال التي وردت بشأنها قواعد خاصة في لائحة ترتيب المحاكم الشرعية أو القوانين الأخرى المكملة لها » .

وأختلف الفقه والقضاء في تحديد أثر هذا الإلغاء حيث ذهب جانب من الفقه وسايرته في هذا محكمة النقض إلى استمرار العمل بدعوى الحسبة في نطاق منازعات الأحوال الشخصية ، باعتبارها المجال الخاضع تماما

للشريعة الإسلامية، كما يجد سنته في المادة ٢٨٠ من اللائحة التي تحيل القاضى إلى الراجح من المذهب الحنفى فى حالة خلو اللائحة والقوانين المكملة لها من نص يحكم الموضوع المشار، فطالما خلت اللائحة والقوانين المكملة لها من أى نص يلغي دعاوى الحسبة ، وطالما أن دعاوى المسيبة من الأمور التى تعد راجحة فى المذهب الحنفى فيتعين قبول دعاوى الحسبة طبقاً لأحكام المادة ٢٨٠ من اللائحة.

وذهب رأى آخر إلى أن المشرع بذلك الإلغاء قد أفصح عن إرادته بخضوع منازعات الأحوال الشخصية لذات القواعد الواردة في قانون المرافعات والتي تخضع لها باقى المنازعات الدينية ، وذلك بهدف توحيد القضاء الذى يخضع له كافة المواطنين.

ويستند هذا الرأى إلى أن المادة الأولى من القانون المذكور قد نصت على « تنفي المحاكم الشرعية والحاكم المليء ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وتحال الدعاوى المنظورة أمامها لغاية ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ إلى المحاكم الوطنية لاستمرار النظر فيها وفقاً لأحكام قانون المرافعات».

ويستفاد من هذا النص ليس فقط إلغاء المحاكم الطائفية وإنما أيضاً اختصار دعاوى الأحوال الشخصية لأحكام قانون المرافعات ، وحدد النص معياراً تاريخياً لبدء تطبيق أحكام هذه المادة على الدعاوى المنظورة والتي ينطبق عليها هذا المعيار ، أى حدد النص نطاق الزمني لسريان أحكامه. وبذلك تخضع جميع دعاوى الأحوال الشخصية الجديدة المرفوعة من ١٩٥٦ / ١ لأحكام قانون المرافعات.

١- المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لا تصلح سندًا تشريعياً لدعوى الحسبة:

نصت هذه المادة على:

«تصدر الأحكام طبقاً للمدون في هذه اللائحة ولأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة ما عدا الأحوال التي ينص فيها قانون المحاكم الشرعية على قواعد خاصة فيجب فيها أن تصدر الأحكام طبقاً لتلك القواعد».

وهذه المادة لا تصلح سندًا تشريعياً لدعوى الحسبة وذلك للأسباب الآتية:
أ- لم يكن هذا هو قصد المشرع من هذه المادة ودليلنا على ذلك أنه قد أفرد المادة ٨٩ والمادة ١١٠ لاداء هذا الدور.

ب- موضع المادة ٢٨٠ حيث لم تأت في الباب الثاني المخصص لقواعد

الرافعات- وهو الموضع الطبيعي والمنطقى الذى ينظم الصفة والمصلحة فى رفع الدعوى- وإنما جاءت فى الباب الرابع من الكتاب الرابع المخصص للأحكام.

ث- هذه المادة معيبة حيث تحيل القاضى إلى قواعد غير مقتنة ومدونة فقد استقرت غالبية النظم القانونية الحديثة على ضرورة تدوين القواعد القانونية حتى يسهل للقاضى الرجوع إليها كما يسهل مهمة الدفاع ويحيط المواطن علما بالتزاماته القانونية، ويسهل للمحكمة العليا مراقبة حسن تطبيق القانون.

ث- شبهة عدم دستورية هذه المادة لتعارضها مع مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والقضائية، حيث أحال النص للقاضى مهمة البحث عن الراجح من المذهب الحنفى، فإذا كانت القاعدة التى استقاها القاضى واضحة فالرجحان فلا ترتيب على عمله وتنتهى بذلك شبهة عدم الدستورية المؤسسة على هذا الوجه.

أما إذا كان رجحان القاعدة أمراً مبهاً فإن ترجيح القاضى فى هذه الحاله إنما يكون عملاً متجاوزاً نطاق البحث عن القاعدة ليدخل فى نطاق تشريعها وهو ما يخرج بالضرورة عن اختصاص السلطة القضائية ليدخل حصاراً فى اختصاص السلطة التشريعية. وبقصد هذا الوجه من عدم الدستورية يقول المستشار محمود عقبة:

«إن القاضى عندما يحكم بأرجح الأقوال فإنه غير معروف ما هي أرجح الأقوال فى مذهب أبي حنيفة؟ هم يقولون أن الأرجح فى هذا المذهب هو ما اتفق عليه الصالحين أبي يوسف قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد وهوواضع كتاب الأموال فقط عن فقه أبي حنيفة . أما الصاحب الثانى محمد فقد جمع كافة ما يتعلق بالمذهب الحنفى، وبالتالي فإنه غير معروف ما هو الراجح فى هذا المذهب (أخبار الأدب- العدد ٢١- فى ١٤- ٩٥ ص. ١٠).»

وهناك وجه آخر لعدم الدستورية حيث قصرت هذه المادة الشرعية الإسلامية على مذهب واحد وهو قصر غير مبرر، وهذا القصر يرجع تاريخياً لفترة الاحتلال资料 the Ottoman Empire لمصر حيث كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية.

ج- عدم دستوريتها استناداً إلى عدم نشر القواعد الراجحة من هذا المذهب فى الجريدة الرسمية، فالمادة ١٨٨ من الدستور تستلزم نشر القوانين

في الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم اصدارها . فالنشر هنا يعد ركناً جوهرياً يخلفه بعدم القاعدة القانونية محل البحث . وبذلك تفتقد القواعد الراجحة من المذهب الحنفي خاصية القواعد القانونية .

١٢- المادة الثانية من الدستور لا تتصل بمفرداتها كسند تشريعى لدعوى الحسبة:

جعلت المادة الثانية من الدستور - بعد تدليها أثناء حكم السادات - من مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع ، ومع هذا لا تتصل هذه المادة بمفرداتها كسند تشريعى لدعوى الحسبة ، وذلك يرجع إلى أن هذه المادة غير نافذة بذاتها ، فلا يجوز للمحاكم أن تتولى تطبيقها مباشرة ، وإنما الأمر في حاجة لتدخل المشرع لتقنين تلك المبادئ في قواعد قانونية . وهذا التحديد لنطاق المادة الثانية من الدستور ليس اجتهاداً من قبلنا نحن إنما هو ما قررته محكمتنا الدستورية العليا حيث ذهبنا إلى أن :

«نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن في حقيقته خطاباً موجهاً إلى المشرع لصحته على إعادة النظر في التشريعات القائمة وفقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية التي يجب أن تصدر التشريعات الجديدة متوافقة معها . فالخطاب في هذا النص الدستوري موجه إلى المشرع لا إلى الكافة ولا إلى القضاء وبهذه المثابة فإن مبادئ الشريعة الإسلامية لا يكون لها قوة إلزام القواعد القانونية إلا إذا تدخل المشرع وقتتها أما قبل ذلك فلينها لا تعدون أن تكون مصدراً موضوعياً للتشريع» .

وأضافت المحكمة الدستورية أنه: لو أراد المشرع الدستوري جعل مبادئ الشريعة الإسلامية من بين القواعد المدرجة في الدستور على وجه التحديد أو قصد أن يجرى إعمال تلك المبادئ بواسطة المحاكم التي تتولى تطبيق التشريعات دون ما حاجة إلى افراها لنصوص تشريعية محددة مستوفاة للإجراءات التي عينها الدستور لما أعزوه النص على ذلك صراحة : (حكم المحكمة الدستورية العليا طعن رقم ١/٢٠ في جلسة ١٩٨٥/٤/٤) .

١٣- دعوى الحسبة تتعارض مع المادة ٤٠ من الدستور التي كفلت مبدأ المساواة بين المواطنين:

أرسى الدستور المصري الصادر عام ١٩٧١ في المادة ٤٠ منه مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وحظر كافة أشكال التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس ، حيث ثبتت على أن :

«الموطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة».

وحيث أن قوام فكرة دعاوى الحسبة هو منح المواطن المسلم الحق في رفع دعاوى الحسبة وسلب المواطن غير المسلم هذا الحق فإنها بذلك تقييم تمييزاً بين المواطنين قائماً على تفرقة دينية.. كما تقييم تمييزاً آخر بسبب الجنس، عندما تمنع الذكر المسلم حقوقها أوسع مدى من تلك التي تمنحها للمرأة المسلمة . وبذلك تتعارض دعاوى الحسبة مع مبدأ المساواة الدستوري . ومن المستقر قضائياً أن مبدأ المساواة لا يسري إلا على من يشتملون مركزاً قانونياً واحداً، وفي حالتنا توجد وحدة في المركز القانوني بين المسلمين وغير المسلمين في بعض منازعات الأحوال الشخصية . حيث تخضع منازعات غير المسلمين الشخصية للشريعة الإسلامية في أجواء معينة ، وفي ذلك تقول محكمة النقض:

«مبدأ المادتين السادس والسابعة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بـالغاء المحاكم الشرعية والمملية أن ضابط الإسناد في تحديد القانون الواجب التطبيق في مسائل الأحوال الشخصية للمصريين هو الديانة ، بحيث تطبق الشريعة الإسلامية على كل المسلمين وغير المسلمين المختلفين في الملة أو الطائفة .. وتطبق الشريعة الطائفية على غير المسلمين المتحدى الملة والطائفة . (نقض الطعن رقم ٢٩ لسنة ٤٧ في جلسة ٢٨/٢٩ س ٣٠ مع فتوى فدنى - ص ٦٨) كما تشتراك المرأة المسلمة مع المواطن المسلم في ذات المركز القانوني فيما يتعلق بمنازعات الأحوال الشخصية .

١٤- فكرة النظام العام كما يعرفها القانون الوضعي المصري لا تتسع لدعاوى الحسبة:

تقوم فكرة النظام العام على مذهب علماني عام يطبق على الجماعة بأسرها ، رغم اختلافهم في معتقداتهم الدينية . وتطبيقاً لذلك لا يمكن أن نعتبر تعدد الزوجات جزءاً من النظام العام يخضع له المواطنون المصريون غير المسلمين ، رغم كون الإسلام دين غالبية السكان والدين الرسمي للدولة، ورغم أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع . وهذا الفهم مستمد من أحكام محكمة النقض المصرية حيث ذهب إلى:

«وحيث أنه وإن خلا التقنين المدني والقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ من

تحديد المقصود بالنظام العام ، إلا أن المتفق عليه أنه يشمل القواعد التي ترمي إلى تحقيق المصلحة العامة للبلاد ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، والتى تتعلق بالوضع الطبيعي المادى والمعنوى لمجتمع منظم ، وتعلو فيه مصالح الإفراد ، وتقوم فكرته على أساس مذهب علمائى بحث يطبق مذهبها عاماً تدين به الجماعة بأسرها ، ولا يجب ربطة البيبة بأحد أحكام الشرائع الدينية ، وإن كان هذا لا ينفي قيامه أحياناً على سند مما يمتد إلى العقيدة الدينية بسببه ، متى أصبحت هذه العقيدة وثيقة الصلة بالنظام القانونى والاجتماعى المستقر فى ضمير الجماعة بحيث يتأنى الشعور العام عند عدم الاعتزاد به ، مما مقاده وجوب أن تتنصرف هذه القواعد إلى المواطنين جميعاً من مسلمين وغير مسلمين بصرف النظر عن ديانتهم ، فلا يمكن تبعيضاً فكرة النظام العام وجعل بعض قواعده مقصورة على المسيحيين وينفرد المسلمون ببعضها الآخر ، إذ لا يتصور أن يكون معيار النظام العام شخصياً أو طائفياً ، وإنما يتسم تقديره بالموضوعية متفقاً وما تدين به الجماعة في الأغلب الأعم من أفرادها (انظر في ذلك الحكم في الطعنين رقمي ١٦ ، ٢٦ لسنة ٤٨ ق والصادر في ١٧ يناير ١٩٧٩ - أحكام نقض - سـ . ٣ - العدد الأول - ص ٢٨٨ و ما بعدها).

أى أن معيار النظام العام لا يبنى على أساس شخصية أو طائفية ، ولا يرتبط بأحكام أحد الشرائع طالما لم تتضمن تلك الأحكام في النظام القانونى ، فالقول بأن دعوى الحسبة تستمد سندتها من فكرة النظام العام ، إنما يعني الأخذ بمعيار يؤدي إلى تبعيضاً وتجزئة فكرة النظام العام حيث يقيم تفرقة على أساس ديني بين المواطنين لأن يمنع المسلمين منهم حق رفع دعوى الحسبة ويحرم غير المسلمين من هذا الحق . كما يقيم تميزاً بين الذكور والإإناث داخل أبناء الدين الواحد وهو الأمر الذي يهدى فكرة النظام العام من أساسها .

النتائج:

- ١- ضرورة تقوين ما يراه المشرع من أحكام الشريعة الإسلامية في قانون ، وإلغاء الإحالات الواردة في المادة ٢٨٠ من اللائحة للراجح من المذهب الحنفي .
- ٢- إضافة نص جديد إلى اللائحة يقضى صراحة بسريان قانون المرافعات على منازعات الأحوال الشخصية وذلك فيما يتعلق بتحديد شروطى الصفة والمصلحة في رفع الدعوى وهو ما يعني إلغاء دعوى الحسبة من قانون الأحوال الشخصية .

قضية صلاح محسن: الاعتراف ليس سيد الأدلة

حلمى سالم

شهدت الشهور الأخيرة طائفنة من الوقائع الثقافية الفكرية ، التي تتفق جميعها على كبح حرية الرأي وقمع المبدعين ، كما تتفق جميعها في الانطلاق - قانوناً - من دعوى الحسبة ، وفي رفع رأبة الدين قناعاً لإخفاء الهدف الأصلي : كبت الفكر.

لن نتعرض لكل هذه الطائفنة من الواقع المؤلمة ، لأن ذلك ليس غرضنا في هذا المقام . يكفي أن نشير سريعاً إلى: قضية الحسبة التي رفعها الشیخ يوسف البدری على الشیخ عبد الصبور شاهین بحسب كتابه «أبی أدم» ، وقضية الكاتبین الكويتيین لیلی العثمان وعالیة شعیب ، وقضية الشاعر الأردنی موسی حوامدة ، وقضية مارسیل خلیفة فی لبنان ، وقضية مؤلف كتاب «قصة الخلق» من العرش إلى الفرش (الذی وافق عليه الأزهر منذ عامین لما وفقته الشريعة ، ثم عاد مؤخراً ومصادره لعدم موافقته العلم) ، وقضية الروانی السوری صبھی سلطان الذی صادر الدروز روایته ، وقضية روایة «صنعاء مدينة مفتوحة» للکاتب الیمنی محمد عبد الولی الذی دخل قبل عشرين عاماً ونشرت روایته قبل وفاته بخمس سنوات ، وقضية «وليمة لاعشاب البحر» وغيرها ذلك.

القضية التي أود التوقف عندها ، في هذه السطور القليلة ، هي قضية صلاح الدين محسن ، الكاتب الذي احتجزته النيابة منذ أربعة شهور ، ثم

أصدرت المحكمة منذ أسابيع قليلة حكمها ضدّه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ، وكانت التهمة أنه- في بعض كتبه - يزري بالأديان وينكرها ويسيء إليها.

صلاح الدين محسن- لم يتابع حكايته- مهندس يعمل في توزيع البوبيات ، وقد أصدر أكثر من كتاب على نفقة الخاصة ، بين رواية ومسرحية وفكّر منها: مسامرات السماء، وارتعاشات تنويرية . وقد يرى كثيرون - وأنا منهم- أن كتبه هزيلة القيمة الفنية والفكّرية . وقد حدث أن مرّ محسن على «أدب ونقد» ، منذ بضعة سنوات ، عارضاً العديد من كتاباته ، لكن هيئة تحرير «أدب ونقد» رفضت أن تنشر شيئاً من إنتاجه ، ليس بسبب فكري ، بل بسبب شدة ركاكه ذلك الإنتاج وشدة ارتباكه واضطرابه . لكن ذلك كلّه أمر مختلف عن ضرورة الدفاع عن حرية الأفكار والأراء ، مهما كان رأينا في هذه الأفكار والأراء .

ومن هنا ، فإننا على قضية صلاح الدين محسن ، مجموعة من الملحوظات الملحّة:

(١) ربما كانت كتابات محسن ضئيلة القيمة أو شديدة التشوش ، لكن الذي لا جدال فيه هو حقه في حرية التعبير والرأي ، وذلك انطلاقاً من القاعدة التي تؤكد أن الحجب والمنع لا يعالجان انحرافاً ، وإنما يعالج الانحراف بمقارعته الفكرية ودحضه بالحجة والبرهان.

(٢) كان من سوء حظ الكاتب أن طبعته الشخصية دفعته- بقدر واضح من السذاجة- إلى عدم إنكار التهم التي وجهتها النيابة إليه ، ولم تكن لديه حصافة الالتفاف ولا حنكة التمويه ، مثلما يفعل أهل الخبرة حينما يقعون تحت طائلة القانون.

كما كان من سوء حظه أنه كاتب مغمور ليست له شهرة نظرائه من الآباء أو المفكرين الذين واجهوا نفس الهمجنة المظلمة تحت ستار الدين والأخلاق الحميدة.

ويبدو أن هذين العاملين- عدم حصافته وعدم شهرته- كانوا وراء ضعف اهتمام الحياة الثقافية المصرية والعربية بقضيته ، مقارنة بما نالته بعض القضايا الأخرى من عناية المثقفين ، وذلك أمر مؤسف، بحق، لأن المفترض أن

يكون الأصل في هذه القضايا هو المبدأ لا الشخص ، بمصرف النظر عن شهرة الشخص أو انفماره . كما أن المفترض أن يكون الدفاع عن « حق » المرء في إبداء رأيه ، هو جوهر موقف المثقفين ، وليس الدفاع عن « الرأي » نفسه ، مصيبة كان أو خطئا . وكذلك الدفاع عن حرية المبدع ، بقطع النظر عن المستوى الفني أو الفكرى لذلك الإبداع .

وعلى ذلك ، فلم يكن من اللائق أن يكون دعم المثقفين لصلاح محسن ضعيفا ، تحت أى دعوى من ركاكاة آدائه ، أو تشوش فكره ، أو سذاجته فى الإقرار بالتهم ، أو عدم ذيوع صيته كمفكر أو أديب .

(٢) من مفارقات هذه القضية ، أن تصل قلة اعتماد المثقفين بصاحبها إلى درجة أن يهاجمها بعض المثقفين والكتاب من أهل حرية الرأى وحرية الإبداع - هجوماً مدينا ، جعل المتابع يرى أن حكم المحكمة على الكاتب (بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ) جاء أكثر تعقلاً من رأى بعض المثقفين - المستنيرين - وأكثر تعاطفاً وإدراكاً ورحمة .

بل إن اتحاد الكتاب المصرى (الذى هو نقابة مهنية لسياسية ، مهمتها صيانة حقوق أعضائها ، والدفاع عن حرية رأيهم وإبداعهم) قد سلك سلوكين غريبين يتناقضان مع دوره الأصيل :

فمن ناحية ، انسحب محامى الاتحاد من متابعة قضية صلاح محسن (عضو الاتحاد فى مرحلة دقيقة من مراحل التحقيق .

ومن ناحية أخرى ، أعلن رئيس لجنة الحريات (!!) بالاتحاد عن اندهاشه لقبول محسن عضواً بالاتحاد ، وأشار إلى أنه سيتحقق فى ملابسات قبولة . وبيدأ من أن يسعى الاتحاد إلى حماية مضمونه - مهما كان فكر العضو - حماية نقابية مهنية تقتضيها شرعية وجودها ، إذا به يتخلى عن عضوه ويتركه فى عراء التحقيق والقضاء ، معتمداً الشرط السياسى فى عمله ، قاصداً إلى منافقة التيارات الدينية المتطرفة وطلب ودها المظلم .

وبيدأ من أن يتخذ رئيس لجنة الحريات بالاتحاد (لاحظ اسم اللجنة) موقفاً يتسق مع موقعه وواجب لجنته ، إذا به يساهم فى حملة أصحاب الحسبة بالتشكيك فى مشروعية انضمام الكاتب إلى الاتحاد . وهو التشكيك الذى يتتجاوز الشرط القانونى إلى المعيار الفكري والسياسي فى دخول الاتحاد .

وكلنا نعلم أن قانون الاتحاد يشترط لقبول العضوية أن يكون للمتقدم كتابان مطبوعان (ولصلاح محسن- حوالى ستة كتب) . وكلنا نعلم- كذلك- أن مئات من أعضاء الاتحاد الحاليين هم من الموظفين والمسعاة والمذيعين والإداريين الذين دخلوا الاتحاد- أيام ثروت أباظة- بدون أن يكون لهم كتاب واحد. فلماذا الكيل بمكيالين، والاستنساد على محسن وحده؟.

(٤) أما السؤال الخطير، المskوت عنه ، في القضية برمتها، والذي لم يطرحه أحد بعد، فهو : « وماذا في أن يكون شخص من الأشخاص- مواطن أو مبدع أو مفكر- غير مؤمن ، أو غير ذي دين ، طالما أنه كمواطن يؤدي واجباته القانونية ويتمتع بحقوقها القانونية؟ ».

صحيح أن الدستور ينص على أن الدولة « دولة إسلامية »، ولكن هل هذا النص يعني أن المسيحيين (وهم سُدُّس الوطن) غير دستوريين؟ . وما معنى أن ينص الدستور على « حرية الرأي والتعبير الاعتقادي» إلا إذا كان ضمن هذا المعنى أن يمكن اختيار شخص من الأشخاص في أن يكون غير ذي دين؟ .

هل « حرية الاعتقاد» هذه مقصورة على حرية الاعتقاد داخل الأديان السماوية الكتابية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) فقط، أم أنها تشمل حرية المرء في أن يكون اعتقد خارج هذه الأديان الثلاثة، أو خارج الأديان عامة؟ .

هذا سؤال يحتاج إلى إجابة سريعة وواضحة وقاطعة. وإذا كان لقضية صلاح محسن من فضل- على ما فيها من ألام ومرارات- فهو فضل طرح هذا السؤال المskوت عنه من زمن طويل:

ما هو المقصود ، تحديداً، بحرية الاعتقاد؟ هل ينصرف معناه إلى المسألة الدينية ، أم أنه محصور بالاعتقاد في الجوانب الفكرية؟
إذا كان المعنى محصوراً في الجوانب الفكرية فقط، لا الجوانب الدينية ، فمعنى ذلك أن ذلك النص الدستوري يجعل المسيحيين المصريين واليهود المصريين أشخاصاً غير دستوريين . ويغدو بذلك نصاً طائفياً وتمييزياً واستبدادياً ، بينما هو في الأصل يتغيباً نفي الطائفية ونفي الاستبداد والقمع.

وإذا كان القصد منصرفاً إلى شتى أنواع حرية الاعتقاد، بما فيها الاعتقادات الدينية، فإن محاكمة أي كاتب على معتقداته الفكرية أو الدينية هي عمل غير دستوري. وكذلك يندو حكم القضاء على صلاح محسن حكماً غير دستوري.

وعليه، فإذا كانت مخالفة الدستور تقتضي معاقبة مرتكبها، فإننا ندعوا إلى محاسبة كل من اتهم أو حاكم أو حبس مواطناً بسبب رأيه أو اعتقاده، بوصفهم مخالفين لنص صريح في الدستور، هو النص الذي يكفل حرية الرأي وحرية الاعتقاد، ويؤثم التمييز بين الأفراد بسبب اللون أو الدين أو الجنس.

(٥) أما الحكم الذي أصدرته المحكمة -بعد بضعة شهور من التحقيقات- فهو يستحق بعض التقدير وبعض التحية:

فعلى الرغم من التناقض مع الدستور الذي ينطوي عليه مجرد تقديم أو مثل صلاح محسن- أو غيره- للمحاكمة، كما سبق القول، وعلى الرغم من أن منطق الحكم، ،مهما كان مخففاً أو منعدم التنفيذ، يعني في جوهره إدانة الكاتب ومحاسبته على آراء لا يذيعها بالعنف بين الناس بما يهدد النظام العام والسلام الاجتماعي، نقول: على الرغم من كل ذلك ، فليس خافياً ما في منطق الحكم من اعتماد أدلى حدود العقوبة المنصوص عليها في القانون . وليس خافياً ما في منطق الحكم من إيمان ضعنى بأن العجب أو الحبس لا يعدم الفكر المراد دحضه ، بل إنه يروج ذلك الفكر ويحول صاحبه إلى شهيد مغدور أو بطل مضطهد.

ولعل هذه المعانى غير الخافية في منطق الحكم هي ما دفعت النيابة إلى الطعن فيه. ويبدو أن النيابة (التي أوكل لها المشرع الولاية على دعاوى الحسبة، بعد التعديل الذي دخل على قانون الحسبة عقب عاصفة نصر حامد أبو زيد ، منذ أربع سنوات) لا تستربى إلا إذا شنق كل صاحب رأى مختلف عن التفہمة الرسمية ، ولا ترى أن السلام الاجتماعي سيعم إلا إذا صار كل كتاب ومتلقي كتاب هذا الوطن من نزلاء أبي زعبل .

الفكر الديني، آفاق جديدة (٢) نقد العقل الإسلامي: متى.. وكيف؟

أيمن عبد الرسول

لم يعد مستغربا على الباحث في مجال التراث والدراسات الإسلامية اسم (محمد أركون) المفكر الجزائري الأصل، المسلم المقيم في باريس، وأستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون، خاصة بعد أن اكتشافه عربيا على يد مترجم وناقد عربي معروف هو، هاشم صالح، المسئول عن ترجمة وشرح أركون للقارئ العربي، فـأركون يكتب بالفرنسية، لغة تدرّيسه ومعايشته، وخطابه الفكري ينطلق من الهم الإسلامي، مستهدفا ثلاثة أبعاد لا بد أن نتعرض لها بالتفصيل.

أما بالنسبة للقارئ العربي، الذي يهتم بالفلك الإسلامي، فلا يجد خطاب أركون محققا لأهدافه في تشكيل مرجعية أصولية دينية تحظى باهتمامه، هذا فضلاً عن الغلاء النسبي الذي تباع به كتب أركون في المكتبة العربية وهو ما يجعله بعيداً عن القارئ العادي لسببين، أو لا لعلمية خطابه المنتج حول الفكر الإسلامي وهذا سبب إيديولوجي، والسبب الاقتصادي الذي أشرنا إليه، يزهد فيه حتى المثقفين المعندين بنفسهم.

وبصيغة خاصة كان أول لقاء مع الخطاب الأركوني من خلال كتابه «من في يصل التفرقة إلى فصل المقال .. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟» (١) فكان فاتحة العلاقة العلمية بيتي وبين كتابات هذا المفكر الذي ما أن تدور طرف في فمه حتى تشعر بعده العجز والتقصير في متابعة معطيات العلوم الإنسانية المعاصرة، وتطبيقاتها على

ال الفكر الإسلامي من جهة ، وكذا تبدأ في محاولة الإجابة على هذا السؤال المشكّل: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ وإن كنا جميعاً نسعى لتشكيل هذا الخطاب المعاصر (أقصد المشتغلين بالبحث عن منهج علمي لدراسة الإسلاميات) والتقاء مع الخطاب الأصولي المنتج حول الإسلام والذي يبدو أنه استند كل طاقاته الخلاقة.

ومن خلال المقالات القادمة سوف نتوقف وقفه نقدية وتحليلية من معطيات هذا الخطاب الذي نحسبه مغامراً في ساحة الفكر الإسلامي ، فالخطاب الأرثوذكسي ينطلق كما أشرنا من الفكر الإسلامي ويستهدف في المقام الأول خلق وهي نقدي متجاوز وعلمي للإسلام ، وأهدافه التأسيسية على ما نرى تتجلّى في النقاط التالية:

أولاً: نقد الخطاب الإسلامي والخطاب الاستشرافي معاً ، وهذا النقد يتضمن نقد (مشروع التنوير العربي) بوصفه اعتمد أساساً على العقلانية الوضعية الأوروبية التي يوجه لها أرثوذكسيون نقداً منهجهما قاسياً من منظور المنهج العلمي المعاصر ، وإن كان مفهوماً نقداً للخطاب الإسلامي الإيديولوجي بالأساس ، فالخطاب الاستشرافي لا يقل تهافتاً عن الإسلامي بوصفه يعتمد المنهج الوصفي المحايد ، الذي لا يغوص إلى عمق المشكلات بقدر ما يهمه الاهتمام بجمع المعلومات والتقدّم التاريخي للنصوص وهو بذلك خطاب اسكلوستيكي^(٢) لا يقل في خطره عن الفهم السائد للإسلام في الخطاب الأصولي.

ثانياً: قراءة التراث قراءة نقدية تهدف إلى إعادة موضعته في التاريخ ، بعد أن أدت سيادة الأرثوذكسيّة^(٣) إلى دمج التاريخي والاجتماعي في (المقدس) وتحويله إلى (وحى) وبهذه القراءة تفكيرية للكشف عن تعددية هذا التراث الذي حاولت الأرثوذكسيّة مصادرته لصالحها. هذه الأرثوذكسيّة تتجلّى في ثلاثة تراثات حية ، ما زالت تمارس فعلها الآني في التاريخ من خلال التراث السنّي والشيعي والخارجي (نسبة إلى الخارج) لكل منها إيديولوجيتها الخاصة وظواهيره العقدية التي تمدّجها تاريخياً بوصفيتها (مقدساً).

ثالثاً: بعد نقد الخطابات المعاصرة إسلامية واستشرافية وتراثية يصل إلى تلك المحاولة الجسورة لقراءة الوحي/ القرآن قراءة تزامنية مضادة للقراءة الاسقاطية

التي استمرت قرونًا طويلة في الفكر الإسلامي والمستمرة حتى الان .. والمقصود بالقراءة التزامنية استعادة لحظات التلقى الأصلية، حيث كان العقل يمارس أليته وعمله بطريقة معينة ومحددة، دون إسقاط مفهوم العقل، أو العقلاني المتأثر بالفلسفة الاغريقية.. إنها قراءة العجيب المدهش كما كان يتلقاه العربي المعاصر لتكون النص (٤) وهذه القراءة تمثل نقديضاً للقراءة الاستقطابية من جهة، وكذا نقديضاً للقراءة التجزئية ، وذلك من حيث إنها- القراءة التزامنية -قراءة «كلية» تنظر إلى القرآن في كليته وتحتاج إلى إزاحة واختراق التراكمات الدلالية والسيميوائية التي انتجتها القراءات التراثية وكذا القراءات المعاصرة ذات الطابع المدرسي!.

وبعد، هذه هي الملامح العامة للخطاب الأركنوني ، أما الآن فنحن بصدور عرض لأحد أهم دراساته والتي يقترح فيها تجاوز مفهوم الاجتهاد الكلاسيكي من أجل الانتقال منه إلى نقد العقل الإسلامي ، هذا النقد الذي من شأنه أن يفرغ حماة الارثوذكسيّة الإسلامية من جهة وكذا تجديد الفكر العربي الإسلامي لكي يصبح أكثر قدرة على ممارسة دوره النشط في مواجهة قضايا مجتمعاتنا الحالية.

ويشير هذا الكتاب «من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي» (٥) عدداً كبيراً من القضايا الهاجسة في ذهن الفكر الإسلامي المعاصر ، ليس أهمها شروط تجاوز الاجتهاد والذي احتكره الفقهاء (مؤسسو المذهب الفقهي الكبير) باعتباره امتيازاً للائمة المجتهدين ، بشروطه الكلاسيكية المعروفة (٦) ، أو عرض كم وكيف العقبات التي تواجه الباحث اليوم في تجديد الفكر الإسلامي ، ولكن أهمها من وجهة نظرنا الإشارة إلى قضايا ما زالت في حاجة إلى نقاش ، أو لفتح آفاق آخر لمناقشة «اللامفکر فيه في الفكر الديني» ، مثل قضايا النسخ وأسباب النزول ومحاولة جادة للكشف عن البنى التأسيسية والأطر الاجتماعية والمعرفية لكتابات التراث من خلال البحث عن معنى أو لتفسيير كلمة في آية وهي كلمة «الكلالة».

ومن خلال هذه الدراسة يشير أركون إلى أن ما ينبغي أن يحظى باهتمامنا هنا وينبغي التركيز عليه هو ذلك المزعم المفرط والمحروم المتبع الذي يدعى الفقهاء بأنهم قادرون على التماس المباشر بكلام الله ، وقدرaron على الفهم المطابق لمقاصده

العليا ثم توضيحيها وبلورتها في القانون الديني ، ومن ثم تثبيت القانون الإلهي أو المؤله (الذى تم خلع أربية التقديس عليه مع أنه بشري) الخاص بالاحكام الشرعية التي ينبغي أن تتحكم أبداً بكل تصرف أو كل تفكير يقوم به المؤمن الخاضع لامتحان الطاعة لله . الكتاب ص ١٥.

ذلك لأن بنية أصول الدين والفقه الإسلامي تقوم على افتراض عدم وقوع المجتهد في الخطأ وإنما سمي مجتهداً، وهذا فالباحث المسلم عليه أن يواجه كل هذا الكم من الآثار العقائدي والتأويلي إذا أراد الانخراط في مشروع زحمة شروط الاجتهاد النظرية وحدوده من المجال اللاهوتي - القانوني الذي حصر فيه من قبل الفقهاء (فالعلمون أن الاجتهاد مقصور على أصول الفقه بوصفه أحد مباحث الاستدلال الاستنباطي أو التعميرات الذهنية لقياس الغائب على الشاهد أو العكس) إلى مجال التساؤلات الجذرية وغير المعروفة حتى الآن من قبل التراث الإسلامي : أى إلى مجال نقد العقل الإسلامي.

هذا المشروع الذي تناوله أركون في مقالات عديدة، ليس أهمها كتابه «تاريخية الفكر العربي الإسلامي»، وعنوانه بالفرنسية (نحو نقد العقل الإسلامي) وكانت ترجمته بهذا العنوان احتراماً لشاعر القاري المسلم الذي لم يالف بعد هذه العنانيين الصادمة لشاعره العقائدية ولهذا - من وجهة نظر أركون - ينبغي على المفكر المسلم الحديث أن يحتاط لنفسه جيداً أو يجهز نفسه علمياً بشكل لا غبار عليه فيطلع على كل ما يخص معرفة النصوص القديمة والشروط التقنية للاجتهاد الكلاسيكي ، ينبغي عليه أن يمتلك ذلك أولاً ، فلا يعتبره تحصيل حاصل ، أو شيئاً تراثياً لا قيمة له.

ذلك أن الانتقال من مرحلة الاجتهاد الكلاسيكي إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي ، ينبغي أن يصمم ويصور على أساس أنه امتداد للاجتهاد الكلاسيكي وإنضاج له . هكذا ينبغي أن يفهم من قبل كل المسلمين ، وبالدرجة الأولى من قبل العلماء أنفسهم(٧).

والإشارة هنا مهمة إلى ضرورة هضم التراث بشكل جيد وعلمي من أجل تأسيس معرفة جديدة ، فلابد قبل إعلان القطبيعة المعرفية مع التراث ، دراسته بشكل جيد من

أجل إنتاج ثورة معرفية تقوم على وعي نقاط الفساد والقوة في هذا التراث ، وكذلك يدعونا أركون إلى احترام القارئ المسلم، والحرص على عدم جرح الوعي الإيماني الخاص به أو معاملته بفجاجة.

هذه الاحتياطات المنهجية التي يراها أركون ويتحقق معه فيها كاتب هذه السطور ضرورية عندما نعالج فكرة نقد العقل الإسلامي ، من خلال قراءة أركون للآيتين رقم (١٢) و(١٧٦) من سورة النساء ، ثم الآيات (١٨٠) و(١٨٢) و(٢٤٠) من سورة البقرة.

١- القراءات والرهانات:

يشير في البداية -أركون- إلى مسماوية طرح مثل هذه القضايا في جو ملغم بالتضليل الإسلامي (٨) واتساع مساحة المستحبيل التفكير فيه في المجتمعات الإسلامية الحالية، بحيث تولد هذه الابحاث الحادثة الكثير من سوء التفاهم وهو يزيد بهذه الملاحظة لفت انتباها إلى مسألة التأخير التي يعاني منها الفكر الإسلامي بسبب ضغط الرقابة الایديولوجية الصارمة والممعنة على كل الفئات الاجتماعية ومستويات الثقافة في البلدان العربية والإسلامية وهو لا يعني فقط رقابة الحركات النضالية المذكورة ، ولكن يعني كذلك رقابة (مسيري شئون التقديس) (٩) التي تضيق بقوة أكبر على حرية البحث والتعبير. ومن ناحية أخرى هناك الرقابة الذاتية التي تمارسها نحن كباحثين في مجال دراستنا وخصوصها لظروف النشر وارتفاع أو انخفاض حدة الأسلمة في المجتمع ، هذه الأكرهات القسرية تجعلنا في حالة تقدمية - تراجعية في مناقشة قضايا الفكر الإسلامي ، خوفاً من اخراجنا من بوائز الاسلام.

ومن خلال هذا المناخ المتردى للتفكير الإسلامي ينبع الاستشراق مكانته العلمية بوصفه الأكثر وعيًا وافتتاحاً على فهم ووعي قضايانا ، لأنه الأكثر بعداً عن الأكرهات الرمزية والحقيقة التي تمارسها المجتمعات الإسلامية على مثقفيها..

ويعكس ذلك حالة التفاوت الفاصل بين الباحثين المسلمين والاستشرقين ، والذي يجعل الاستشراق مستمراً حتى الان في الافتخار بأنه وحده الذي يؤدي إلى تقدم الدراسات الإسلامية كما كان عليه الحال أيام جولد تسيهير وجوزيف شاخت ولوى ماسينيون.

وجاءت دراسة الباحث الأمريكي دافيد س. بورز بعنوان دراسات في القرآن والحديث ، تشكل القانون الإسلامي الخاص بالإرث، جامعة برنسون الأمريكية ١٩٨٦ في وقتها لكي تقدم لأركون المناسبة الملائمة لبيان الفرق بين منهجه في دراسة التراث ومناهج المستشرقين ، فالعلم الاستشرافي بعد أن يقوم بعمله يخلف لنا حقولا من الانقضاض ، أما الفكر النقدي فهو بناء ومتضامن فعليا مع كافة أنواع الصعوبات والحالات الجديدة التي ولدتها وأثارها البحث العلمي.

ومن خلال قراءة الجزء الثاني من الآية الثانية عشرة من صورة النساء والتي يجد فيها أركون عدداً من المشاكل الأكثر صحة وملائمة لتوضيح ضرورة الانتقال من مرحلة الاجتهاد إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي والأية نفسها .. وإن كان رجل يورث كلالة أو إمرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل منها السادس فإن كانوا أكثر من ذلك ، فهم شركاء في الثالث من بعد وصية يوحى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم.

والملاحظة الأولى أن القراءة المعتمدة في المصحف أو (المدونة النصية الرسمية المقلقة) تبني المعلين (يورث ويوصى) للمجهول وعندئذ تصبح كلمة امرأة مفهولا به مباشرة ، تماماً مثل كلمة كلالة ، ويرى أركون أن القراءة بالمبني للمجهول وهي التي فرضت على القرآن من قبل الفقهاء والمفسرين ، قراءة تستعصم على الذوق العربي السليم ، بالإضافة إلى أنها صعبة جداً ومتلوية ، وقد احتاجت إلى الكثير من الشروحات والتخاريجات القواعية واللغوية ، واضطربت الفقهاء والمفسرين إلى اللجوء لمحاجات وتأنيلات معقدة وملتبسة (ويحيل القارئ هنا إلى تفسير الطبرى للإطلاع على شيء من ذلك)(١).

وليس من الضروري هنا أن نذكر كل التفسيرات المفضطة والتي يستثمرها الطبرى عن كلمة (كلالة) ومكانتها النحوية في الآية ولكن يللت النظر هذه المعطيات التي يشير إليها أركون : فالطبرى يخصص مكانة ما للقراءة التي يبجلها البعض والتي اعتمدت رسمياً ويفضلها العدد الأكبر من قراء أهل الإسلام بتعبير الطبرى وبالواضح هنا أن الطريقة التي فرضت بها حجية الاجماع ، قائمة على فكرة الاجماع

العدى للأغلبية فقط، وكذا يشير إلى إهمال هذه الفكرة من جانبنا نحن الباحثين في الإسلام ، وتجلى هذه الاتهامية التفسيرية والاستخدام الذائعي البرجماتي للنص عند تعين الفقهاء لآيات الناسخة والمنسوخة ، فتصبح الآيات المنسوخة هنا تلك الآيات التي تتضمن أحكاماً لا تناسب موقعهم ومصالحهم ، وأما الناسخة فهي التي تعيش في خدمة اتجاهاتهم (١١).

نقول ذلك بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله العلماء في سبيل نقد سلسل الاستناد من أجل التتحقق من صحة الأخبار المنسوبة ، أما في منعه أركون فإنه يعتبر هذا التقد وشبيه الاستشرافي (أى التحرى الفلولوجي التاريخي) لابد أن يتدخل في المرحلة الأولى من البحث ، ولكن ليكون خطوة على الطريق لا كل العمل ، ثم نتجاوزه إلى ما هو أعمق بتحديد معنى كلمة الكلالة التي لم يحسها البحث الاستشرافي أو التراش على السواء ، ويقصد بذلك كيفية الانتقال من التفسير في (كلام الله الحق) إلى الكلام الحق للفقيه أو العالم بأصول الدين وذلك من أجل ضمان الإيمان الحق لكل المؤمنين (١٢).

وينتقل بنا أركون إلى استعراض حرص الطبرى على تحقيق اجماع الأمة وهو المعتمد من قبل أمة المسلمين بمثابة التعبير الصحيح أو المقدس عن المقصود الإلهي المتضمن في كلام الوحي ، مع انتقاده منهج الفلوجي (١٣) في قصوره عن الوصول إلى نتائج ملموسة بخصوص قضية المعنى (١٤) ويتناول سبعة روايات من الأخبار السبعة والعشرين التي يوردها الطبرى من أجل التوصل إلى معنى كلمة (الكلالة) ويستخلص عدداً من النتائج أولها محاولة الطبرى المستيسلة والشاربية لإبقاء كلمة (كلالة) دون معنى ، أو العجز عن تحديد معناها ، واللاحظ أن الآية (١٦٧) من سورة النساء نفسها تحمل شهادة على راهنية المشكلة والماحها وطرحها في زمن النبي ، وذلك ليس فقط لأن مسألة الإرث كانت تشغل بال المؤمنين ، وإنما لأنه يبدو أن مكانة الكلالة تحدث وضعاً جديداً يؤدى إلى زعزعة نظام الإرث العربي السابق ، ومن هنا نفهم سر المقاومة والمعارضة التي تمنع عمر ، أى الشخصية الأساسية التي ركزت عليها الروايات ، من الكشف عن معناها الحقيقى (١٥).

تقول الآية (١٧٦) من سورة النساء :

«يستغفرونك قل الله يغتيمكم في الكلالة إن أمروء هلك ليس له ولد فإن كانتا اثننتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبین الله لكم أن تضلووا والله بكل شيء عليم».

هذه الآية كان النبي يكتفى بأحالة عمر إليها في كل مرة يسأله فيها عن معنى الكللة، وهي تشرح بالفعل طريقة الإرث لكنها لا توضح معنى الكللة ، كل ما نفهمه منها أن المرأة إذ يموت دون أن يخلف وراءه طفلًا يمثل حالة من حالات الكللة . وهو ما يبرر قراءة فعل(يورث) الوارد في الآية (١٢) من نفس السورة بصيغه المبني للمجهول لا العلوم . ولكن إذا كانت الحالة المشروحة هكذا في الآية (١٧٦) تكفي لتوضيح معنى الكللة ، فلماذا يورد الطبرى كل ذلك العدد الهائل من الحكايات الدالة على قلق عمر وعلى التساؤلات الملحّة والرازحة لمعاصريه؟ (١٦).

أما ثانية الاستنتاجات فهي أن التفسير التقليدي للقرآن لا يتردد في حسم المشكلة التي يعترف بنموضها الكامل لصالح المعنى الذي تتطلب حاجة الأمة وضفت العرف القائم على التشريع الخاص بالإرث.

والثالث أن المفسرين والقضاة قد حفروا هوة بين النظام التشريعي الذي قصده القرآن وبين النظام الفعلى المبلور والمطبق داخل إطار الدولة الخليفة ثم الإسلامية فيما بعد وحتى اليوم فالقرآن مثلاً يلح على حرية التوصيمية ولكن الفقهاء ضيقوا عليها وشرطوها كما سنرى.

هذه الرهانات الخاصة بالقراءة تكشف لنا عن مدى الانتهازية التي حظى بها تفسير النص القرآني من قبل الإكراهات الأيديولوجية والتنفيذية لمفكري الإسلام في المصور القديمة (١٧) ويشير أيضاً إلى التواصل المستحيل الذي يحاول المفكر المسلم الحديث القيام به مع جمهوره ، من خلال إيضاح المفارقات التي لا بد من استيعابها بين التراث الحكائي الشفاهي والتدوين من جهة وبين الأطر الاجتماعية للمعرفة واختلافها في العصر الأول للإسلام عما نحن فيه الآن (١٨).

وبهذا الصدد نلاحظ أنه لا توجد فقط استمرارية منذ القرن الهجري الأول وحتى اليوم للتشكلة النفسية المرتبطة بالأخبار والشائعة لدى عموم المسلمين وإنما يوجد توسيع سريع وواسع جداً لهذه التشكيلة بسبب التزايد السكاني في البلدان الإسلامية

وبسبب استخدام الوسائل الحديثة في نشر الخطاب الإسلامي التقليدي (١٩). ثم يقدم لنا قراءة الآيات رقم (٢٤٠)، (١٨٢-١٨٠) من سورة البقرة (٢٠) والتي تكمن أهميتها في الاعتراف الصريح بحق كل مؤمن ليس فقط في حرية التوريث لمن يشاء ، وإنما يواجع التوريث عن طريق ترك وصيية بأملاكه للأبوين وللأقارب وللزوجات ، أى لكل من لهم الحق في ورثته والذين يستطيع توريثهم بارادته الصريحة أو حرمائهم من التوريث ، ولكن المشكلة هو أن هذه الآيات قد أبطلت أو نسخت من قبل الآيتين اللتين ذكرناهما سابقاً من سورة النساء ، أو بمعنى أدق أعلن الفقهاء أنها باطلة أو منسوخة . وهذا ما يفسر لنا السبب في الضغوط التي مورست لبناء الفحل (يوحني) للمجهول ، هكذا نجد أنفسنا أمام ارادة صريحة ومتعلمة ، تهدف إلى حصر حرية التوريث ، باستخدام آداة الناسخ والمنسوخ (٢١) بالإضافة إلى التلاعب النحوي والمعنوي بالآية (١٢) من سورة النساء . وإنما كان من الصعب أن نحسم مسألة القراءات والتوصيل إلى المعنى الحقيقي لكلمة (الكلالة) فإنه يمكننا أن نفتح من جديد إضماره الناسخ والمنسوخ وهكذا يمكننا أن نتوصيل إلى الحقيقة التالية: وهي أن المصدر الأساسي للفقه وبالتالي القضاء -ليس هو القرآن بقدر ما هو التفسير (٢٢).

ويأخذنا أركون فيها بعد ذلك إلى مناقشة تأسيس فكرة الاجماع في الفكر الإسلامي، وكيفية التلاعب بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من أدوات فهم القرآن في تأسيس الإرثوذكسيّة الإسلامية.

-٢- الاجماع والإرثوذكسيّة:

لقد انتبه النقد التاريخي للحديث إلى الخاصية الخامسة للإجماع وهي: إنه ناتج عن صيغة اجتماعية وثقافية، وعن جملة المناقشات والصراعات التي أدت إلى انتقاء بعض العناصر وحذف بعضها الآخر تحت ضغط الأكراهات الإيديولوجية والضغوط السياسية والأنظمة المعرفية التي لم تدرس أبداً حتى الآن بشكل دقيق (٢٣) ثم أن ممارسات التفسير الإسلامي التقليدي مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقى والفسعى . وهذه هي الأشياء التي يكشف عنها النقد التاريخي للحديث . ونحن إذ نقف بإزاء هذه الثغرات والثوابت نجد أنفسنا مدعوين كما قلنا

- سابقاً إلى الانتقال للمرحلة التالية من البحث عن طريق طرح الأسئلة التالية:
- 1 ما هو النظم المعرفي الذي يمكن استخلاصه من الممارسة التفسيرية الإسلامية والعلوم الملحة كعلم أسباب النزول وال manus و المنسوخ ، والأخبار ، والنحو ، والخطابة ، وعلم المعانى ؟ وما هي المكانة الاستدللوجية لهذا النظم المعرفي ؟ ..
 - 2 مع موضعه هذه العلوم على محك التطبيق ، ما هو التعديل الذى تحدثه هذه الطرق السردية (القصص والحكايات) على الخطاب القرآنى ، أو ما هي العلاقات التي ينتهاها العقل مع العلامة الدلالية (٢٤) .
 - 3 ما الدور الذى يقوم به الفاعلون الاجتماعيون فى تشكيل الخطاب الدينى والتفاعل معه ، وتراماته الدلالية والسيميانية فى صناعة حجاب حاجز عن بنية الخطاب الأساسية .

ثمة عوامل كثيرة تجعل مهمة تحديث الفكر الإسلامي شيئاً بعيده المثال إن لم يكن مستحيلاً ، ومع ذلك قسوف نقوم بهذه المحاولة العبثية عن طريق تقديم بعض المقترحات -التي يقترحها أركون بالطبع- لـ أجل تشكيل «تيلولوجيا -أناستي- منطقية» للوحى.

- ٣- **عقل إلهي ، خطابات بشرية:**
- كل ما سبق يبين لنا بوضوح إن ينبغي تجاوز المفهوم التقليدي للاجتهاد والممارسة العقلية المحدودة المرتبطة به ، وذلك عن طريق النقد الحديث للعقل (٢٦) .
- فمسلمو اليوم يجدون صعوبة كبيرة في الفصل بين المكانة اللاهوتية للخطاب القرآني ، وبين الشرط التاريخي واللغوي للعقل الذي ينتج خطابات بشرية أرتکازا على العقل الإلهي (٢٧) وذلك اعتماداً على قراءة اعتيادية للتفسير كان يقول الطبرى في تفسيره قبل شرح كل كلمة «يقول الله» ثم يعطي شرحه ، فإنه لا يطرح أبداً امكانية أن المقصود الإلهي قد يختلف مع شرحه للأية ، وهذا يتصدى العقل البشري المتهם حالياً بكل إمكاناته المعرفية- بالقصور -نقول يتتصدى العقل الطبرى أو الزمخشري للخطاب الإلهي شارحاً مقاصده !.
- فالاجتهاد ، تعريفاً ، هو فعل من أفعال الفكر النظري الموجه نحو المعرفة ، إنه البحث عن الأساس الإلهية والمعرفية من أجل تبرير الأحكام الشرعية .. لهذا السبب-

فيما يرى أركون -فإن تجديد الاجتهداد اليوم سوف يؤدي حتماً إلى زعزعة الحقائق الأكثـر شعبية وألفة وإلى تصحيح العادات الأكثر رسوخاً، وإلى مراجعة العقائد الأكثـر قدماً.

إن الاجتهداد عمل من أعمال الحضارة وجهد من جهودها ، وقد مثل من خلال المفكرين المسلمين طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى حيوية خلقة لعقل فكري كبير ولثقافة ونظام معرفى مؤسس لنظام سياسى وإجتماعى وقانونى محدد و معروف . ومن الطبيعي ، بل والضرورى والعاجل ، أن نعود اليوم إلى كل هذه المجالات والميادين فنبصرها من جديد من أجل بلورة تيولوجيا -أناسية- منطقية متصورة على أساس أنها جهد متواصل لتحرير الوضع البشرى (٢٨).

هذه في النهاية هي اقتراحات أركون من أجل الانتقال من الاجتهداد إلى نقد العقل الإسلامي ، لكن السؤال الذى يظل قائماً : متى يتم هذا الانتقال ، وكيف فى ظل ما نعانيه من اكراهات و ممارسات على مستوى عالمنا العربى المعاصر ، وهل تتحقق فى النهاية هذه المشروعات الفلسفية الطموحة إلى خلق وعن إسلامي جديد منفتح وحيوى ؟ الأسئلة أكثر من اقتراحاتنا ، ولكن المهم فى النهاية هو أن نتواصل لأجل إسلام أكثر عقلنة وعلمنة وجدية منهجية ، بعيداً عن كل التراكمات التى أشرنا إليها ، من خلال دراستها وتفحصها النقدى بالأساس (٢٩).

الاشارات والايضاحات

- (١) الكتاب صادر عن دار الساقى -لندن- بيروت طبعة ثانية ١٩٩٥ .
- (٢) اسكلوستيكي : بالمعنى الأصلى والحرفى تعنى المدرسى (الرأى الذى يعلم فى المدارس) لكنها بالأصطلاح الشائع تعنى الروح التكرارية والدوغمائية والاجترارية لآراء السابقين وفي السياق تعنى الخطاب المتصف بالصفات السابقة .
- (٣) الارثوذكسيـة: تعنى فى الأصطلاح الرأى المستقيم أو الصحيح ، وكل ما عداه منحرف وضال وخاطئ ومهترط ، هذا هو المعنى الاصطلاحي الایتمولوجي ، ولكن المعنى الشائع يعنى غير ذلك أي الرأى الدوغمائى المتسلب والتزمر الذى فرض نفسه بالقوة بوصفه الرأى السليم .
- (٤) محمد أركون: الفكر الاسلامى : قراءة علمية : ترجمة هاشم صالح: ص ٢١٢، ٢١٣ .

- ، وأنظر كذلك ٢٢٥-المركز الثقافي العربي ، ومركز الاتماء القومي -بيروت ١٩٨٧ .
- (٥) محمد أركون : من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي : ترجمة هاشم صالح : دار الساقى لندن- بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢ .
- (٦) شروط الاجتهاد الكلاسيكية التى وضعها الفقهاء تتمثل فى :
- ١- معرفة اللغة العربية .-٢- معرف الكتاب القرآن بكل تفاصيله (أسباب النزول- الناسخ والمنسوخ- الحكم والمشابه... إلخ)-٣- معرفة السنة النبوية وأحكامها .-٤-
 - ٥- معرفة أصول الفقه .-٦- معرفة مواضع الأجماع .-٧- مقاصد الشريعة .-٨- الاستعداد الفطري للاجتهاد (راجع الوجيز فى أصول الفقه : د. عبد الكريم زيدان- دار النشر والتوزيع الإسلامية) طبعة أولى ١٩٩٢ ص ٤٠٠ . ٤-٣-
- (٧) من الاجتهاد إلى .. سبق ذكره ص .٧ .
- (٨) المقصود بالإسلاموى هنا: الذى يستخدم الدين كسلاح سياسى فقط دون أي اهتمام بالبعد اللاهوتية أو الروحية للإسلام .
- (٩) تعبير «مسيرى شتون التقديس» يرجع إلى عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر . وهم المستولون فى نظره والمكلفوون من وجهة السلطة الدينية بتحديد ما هو مقدس . ويحتكرون القدسية والتقديس ويبعدون صكوك الغفران .
- (١٠) من الاجتهاد إلى .. سبق ذكره ص .٢٠ .
- (١١) من المعروف علميا أن الفقهاء هم الذين حددوا الناسخ والمنسوخ وترتيب وأسباب النزول ، وهذا لأن استبعاد استخدام التفعي للقرآن لأجل خلق امتيازات فقهية أو سياسية وبالتالي فنحن بحاجة إلى مراجعة هذه العلوم من جديد وراجع الكتاب المذكور من .٣٩.
- (١٢) السابق نفسه (ص ٤٢-٤٤) .
- (١٣) يترجم مصطلح الفلوجيا عادة إلى اللغة العربية بفقه اللغة لكنه يعني في تشكيله التاريخي تحقيق النصوص القديمة أو المخطوطات على أساس علمية .
- (١٤) المعروف أن كل محاولات التفسير في النهاية أو التأويل هي محاولة لاخضاع النص لتأويلات قارئه ، وراجع بحثنا (نقد سلطة النص :: بين التأويل والتأويل المعاكس) أدب ونقد- العدد ١٦٤ لسنة ١٩٩٢ -أبريل ص ٤٤-٤٧).

- (١٥) من الاجتهاد .. السابق ذكره ص ٥٢.
- (١٦) نفسه ص ٥٣.
- (١٧) راجع بحثنا المنشور بالعدد ١٦٨ أغسطس ١٩٩٩ من أدب ونقد ، والمعنى «نقد الاسلام الموضوع» والذى ناقشنا من خلال ثلاثة أمثلة على الاستخدام التفوي للنص من خلال تأويل قصة القرانىق وزينب بنت جحش فيما يخص حسنة النبي، وقصة فداء الله لاسحاق أو اسماعيل وتثبيت الفكر الاسلامى لفكرة فداء اسماعيل دون آى سند قرائى وأثبتنا فيه التطاول على النص القرائى من قبل الاسلام السنى!.
- (١٨) التواصل المستحيل تلك الفكرة قائمة على الهوة الفاصلة بين الخطاب العلمى من جهة والخطاب الدينى وبين الجمهور من جهة ثانية وهو ما يعني أن المفکر المسلم يظل يكتب لطائفة محدودة جداً من المثقفين لانتاج خطاب علمي حول الاسلام وبالتالي يظل منقطعاً لعجزه عن تبسيط كل هذه العقد فى صياغات لغوية تقترب من الخطاب الدينى الشعوبى ، لأنه منتع لخطاب علمي بالاسباب وليس إيديولوجيا أو تعبيويا.
- (١٩) من الاجتهاد إلى... المرجع السابق نفسه ص ٦٤.
- (٢٠) اثروا إثبات نص الآيات في الهاشم اختصار المساحة المتن:
- ١- «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت أن ترك الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين» ح: الآية (١٨٠).
 - ٢- فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع علیم» الآية (١٨١).
 - ٣- «من خاف من موصل حنيفا أو إثنا فاصبح بينهم فلا شم عليه أن الله غفور رحيم» الآية (١٨٢).
 - ٤- «والذين يتوفون منكم ويزرون أزواجا وصبية لازواجهم متبعا إلى الحول غير إخراج هنـىـن خرجـنـ فلا جـنـاحـ عـلـيـكـمـ فـيـ مـاـ قـعـلـنـ فـيـ أـنـفـسـهـنـ مـنـ مـعـرـفـةـ وـالـلـهـ عـزـيـزـ حـكـيـمـ» الآية ٢٤ من سورة البقرة .
- (٢١) تنبغي هنا الاشارة إلى البحث المفصل الذى كتبه أستاذنا د. سيد محمود القمى عن النسخ في الوجي : محاولة للفهم في كتابه الأسطورة والتراجم ، الطبعة

الثانية ١٩٩٣ - دار سينتا للنشر - والتى أوضح فيها الدور الايديولوجي فى وضع علم
الذات والذى يسمى بـ تقويم القضاء للحكم على هذا الالام

^(٢٢)كتاب أركون: من الاجتهاد.. إلى ص ٦٨ وما بعدها.

.٧٧) السابق نفس ص

(٤) للمفكر الفرنسي ميشيل فوكو كتاب هام جداً يسمى (الكلمات والأشياء) درس فيه الفكر الأوروبي من خلال موقفه من العلامة اللغوية، في العصور الوسطى كان الفكر يقوم على مبدأ التشابه والتلابيق مع العلامة، كانت الكلمات هي الأشياء، والأشياء هي الكلمات وهذه هي الرؤية الإسلامية حتى الآن، فالتفكير الإسلامي بهذا المعنى لا يزال ينتمي إلى الفضاء العقلي للعصر الوسطى لأن تصوره للعلامة أو اللغة هو ذات التصور القروسطي.

(٢٥) «تيلوجيا- أنساسية- منطقية» بمعنى تكوين علم لا هوت إنسانى المنشأ والمصدر منطقى، مقبول، وتأسيس انتربولولوجيا قرأتية توضع الإنسان فى العالم وتحرره من أنواع أشكال القسر والقهر.

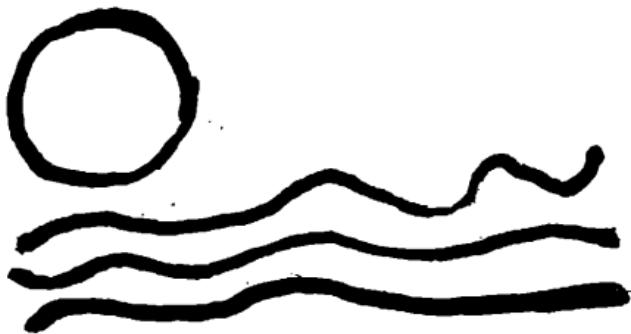
^{٢٦} كتاب أركون المذكور ص ٩٣.

نفسه ص ٩٧ (٢٧)

٢٨) الأُخِيرَة ص ١٧ نفْسَه.

٢٩) لنا بعض الملاحظات:

١- بعد مراجعة مختار الصحاح توصلنا إلى معنى مقترن للكلالة (ك، لـ) الكل العيال والثقل. قال الله تعالى: «وهو كل على مولاه» والكل أيضاً اليتيم. والكل أيضاً الذي لا ولد له ولا والد يقال منه: (كل الرجل يكل بالكسر) (كلالة). قال ابن الأعرابي: (الكلالة) بنو العم إلا باعد وقيل: الكلالة مصدر من (تكلله) النسب أي طرفة كان أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد فليس له منها أحد فسمى بالمصدر . والعزب تقول : هو ابن عم (الكلالة) وابن عم (كلالة) إن لم يكن كاو كان رجلاً من العشيرة) انتهى مختار الصحاح مبادرة (ك، لـ) ص ٢٧٦ مطبعة الجلى بالقاهرة طبعة أولى ١٩٩٤ . محمد ابن أبي بكر الرازي وفي المجمع الوجيز (مجمع اللغة العربية) (الكلالة) أن يموت المرء وليس له والد ولا ولد يرثه ، بل يرث ذروه قرابته (٥٣٩) وهكذا تحدد معناها



لغويًا تعبيرًا عن الأكراهات القديمة

٢- بمراجعة تفسير ابن كثير الجزء الأول من طبعة المكتبة القيمة ص ٤٣٦ في تفسير الآية (١٢) من سورة النساء أورد بعض الروايات حول اختلافهم على معنى الكلالة -يعنى الصحابة -إلا أنها تدور حول الشخص منقطع النسب.

أما في تفسير نفس الآية في (الكافشاف) للزمخشري طبعة دار الريان للتراجم والكتاب العربي ص ٤٨٥ فوجدناه يقول بدون مباحثات جدلية أو روايات عن ضياع معناها ، فإن قلت ما الكلالة ؟ قلت : ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولدا ولا والدا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين . وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد ، والمعروف أن محمود بن عمر الزمخشري توفي عام ٥٢٨ هجرياً وابن كثير توفي عام ٧٧٤ هـ والغريب أن يتحدد المعنى عند الزمخشري المعترض بما يوافق المعانى المعاصرة ، ويقتضيه الطبرى ، ويدور حوله ابن كثير ... ألا ترى معنى كم المفارقات المثيرة للدهشة والدراسة والتقصى !.

هذه هي بعض الملاحظات النهائية حول القضية التي يثيرها البحث موضوع المقال.

كتاب

طالبان : الدين ، الوطن ، المخدرات

عرض : أسامة الرحيمي

طالبان !!

العائم والمدافع والآفيون !

ثلاث كلمات واضحة ، معلومة المعانى ، لكنها مداخل متعددة لعوالم من الغموض والالتباس الذى قد يصل إلى الفوضى فى بعض درجاته . لهذا فإن أسلمة لهفى تترى لاهثة لاهبة :

من طالبان . هؤلاء ؟ هل هم العائم المقصودة فى العنوان السالف ، وهل تختلف عائم هؤلاء الـ " طالبان " عن عائم أولئك " المجاهدين " ! . ولماذا بقيت المدافع وسيلة وحيدة للتّفهّام فيما بينهم لأن ؟ ومن الذى ينفع من روحه فى جذوة الحرب التى لم تنطفئ حتى وقتنا هذا !! ومحاكاة الآفيون ؟ وهل ثمة علاقة تربط الدين والعائم بالمخدرات ؟ وكيف تحتفظ " دار الخلافة الإسلامية " الأفغانية بلقب " أكبر مصنع للمخدرات فى العالم " وما صلة " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " بالحشيش والآفيون وتجارة السلاح !!

قد لا يمكن أحد من الإجابة عن هذه الأسئلة الموجعة على نحو قاطع ، حتى أعضاء " طالبان " أنفسهم قد يعجزون عن تفسير ما يفعلونه وما يفعل بهم .

لكن كل هذه الالتباسات لم تحبط " عبد الحليم غزالى " الصحفى المصرى الدؤوب من السعي خلف الحقيقة ، وفى محاولة باسلة خاض غيوم الضباب

أنباء أفغانستان - طالبان - المتفرقة ، بنية البحث عن «الموضوع» ، فقط رحلة شاقة بين بلدان ذلك الوطن الممزق ، مدنًا وقرى ، والتقى المستولين ، على رأسهم «محمد عمر» .. «أمير المؤمنين» .. وزعيم طالبان ، وتحدث إلى قيادات الحركة ، وقابل «يونس خالص» وهو شيخ في الثمانين ومن دموز الأنظمة الإسلامية السابقة ومنتقى على حزب حكمتير - ١٩٨٠ - ، وظل «عبد الحليم غزالى» يسأل الناس أيًّنما حل عن أحوالهم الاجتماعية ولم يكفل عن استكشاف أوضاعهم الاقتصادية المتهارة والمتفاوتة ، وهذا كلُّه في النهاية وفر لنا مادة ثرية ، جاءت أشبه بالقصيفساء ، صغيرة القطع التي تصنَّع لوحات ضخمة مزدحمة بالتراتيب واللامع والألوان ، ولكنها في النهاية تشكل خريطة لأفغانستان المنكوبة ، ومن جانب يساعدنا هذا أيضًا على الخروج بمعاهيم أقرب إلى الحقيقة ، وإن كانت نسبية ، لكنها تظل موجعة . موجعة جدًا !!

و قبل اللف والدوران في تلقيف الوضع الأنفاني ، لا بد من التذكير - بالضرورة - بكل مكان يتربَّد عن أفغانستان في مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية ، في الجامعات والمساجد والمصانع والشوارع ، فالداعية للمجاهدين الأفغان كانت «أم الانشطة» وأول الاهتمامات ، وكانت جملة وحيدة مثل «ادفع جنبيها تنقد مسلماً كفيلة بالهاب مشاعر العامة والبسطاء ومحدودي الوعي ، وفتح جيوبهم ، وإدرار دموعهم ، وراح هؤلاء يقاتلون في سبيل الله ، وأنهم ورثة الرسول ، وأن ميتهم شهيد ، وعدوهم شيوعي ، أحمر ، كافر ، ومن يتبرع لهم يقترب من الجنة ، ولهذا تدفقت التبرعات ، نتيجة لواحدة من الحملات باللغة الدقة ، محكمة التنظيم ، وتقطارت الأسلحة من جهات سخية مجهلة ، وأحاطتهم موجات إعلامية مؤيدة ، مكتفة وذكية ، روجت لهم في أنحاء العالم ، وانطلقت مطارات الإسلام تدق رؤوس السوفيت الملاحدة ، أعداء الله والبشر ، الذين احتلوا أراضي أفغانستان المسلمة ، وهاجموا الشعب المؤمن الأمن .

وسط كل هذا - أنكر جيدا - طالعتنا جريدة الأهالي - آنئذ - بتحقيق صحفي من أفغانستان ، أعترف أنه كان صادما ، دفعني إلى بعض التنصل ،

لأن ماجاء به كان مروعاً ، ومغايراً للسائد ، "قالمجاهدين .. الأبطال .. حراس العقيدة" لم يكونوا غير مجموعة قبائل متشرذمة ، تتتصارع على الأموال ، وتتختطف التبرعات ، وتتنمازح صفات السلاح ، ويتقاسمون مناطق النفوذ ، ويزعون على أنفسهم الألقاب ، ويتجرون في المخدرات بكثيريات خرافية ، ولا يحبون أن ينسحب السوفييت لضمان استمرار المنافع . لكن من كان يصدق كل هذا . مع أن الأيام أثبتت أن ذلك الكلام كان هو الوجه الوحيد للحقيقة .

ولم يسلم التجمع وقتها ولإجردته ، ولا أصحاب التحقيق الصادق من هجمات هستيرية ، اتّهموا خاللها بالعملة السوفيتية ، ومعاداة الإسلام ، وخاف البعض من سيف التكفير المشهور ، وأثر البعض الصمت ، إلى أن جاء "جورباتشوف" وفاجأ الجميع بسحب القوات السوفيتية - ١٩٨٩ - وفر أعضاء الحكومة الشيوعية ، ودانت البلاد للمجاهدين ، وانتصر حماة الدين الذين التف حولهم المسلمون في أنحاء الأرض ، وبدا الأمر كأن عمر الفتوحات ومجد الغزواد قد عاد .

لكن الحقيقة لم تكن بعيدة ، كانت ترقد في الجوار ، فسرعان ما استدار القبليون بذات العمام ، ووجهوا فوهات ذات المدافع - التي حاربت الملاحدة - صوب القلوب العامرة بالإيمان ، وانطلقت "داناتهم" لتدك المساجد ومواطئ السجود وتحرق اللحى التي استطالت ، والأهم لتفضي الغموض الذي أحاطهم طويلاً ، وفضحت الخلافات بين الفصائل والقبائل ، وأكدت على نحو فادح ، أنهم لم يكونوا - في أية لحظة - سوى مرتزقة ونفعيين يسعون بدأب خلف المغانم والأسلاب ، وأن التبرعات والمخدرات وتجارة السلاح كانت فقط هي الدين والدنيا ، وكانت هي فرض العين والكافية والجهاد في سبيل الكسب ، والكسب فقط ، والحقيقة لم تكن غير النصب على بسطاء المسلمين الذين اقتطعوا من لقيماتهم (الحاف) ليساندوا المقاتلين في سبيل الله ، لكنها آلة الإعلام الغربي الضخمة التي أغرقت العرب في عداء لا يخصهم وجهاد لا يعنيهم ، وصرفتهم عن واقعهم الأليم .

ثم ظهرت عيّام ثانية !!
طالبان !!

على استحياء بدأوا في ضم الفصائل المتناحرة ، حرباً أو سلماً ، وتدريجياً أخذوا يسيطرون على مناطق أفغانستان بلدة وراء الأخرى ، وسرعان ماتساقطت معاقل المجاهدين تحت ضربات "طالبان" ، وسيطروا على أكثر من ٩٠٪ الآن من البلاد بأسرع من كل التوقعات ، ودانت لهم الدنيا ، ورفعت الدن والقرى رايات "طالبان" وهتف البسطاء "طالبانو زند آباد" - تعيش طالبان بلغة الباشتو - وكتبت الأشعار وسجلت الأشرطة وزوّذت وعلت الأصوات تغنى لهم :

كيف تهجمون أيها الظالمون

على هذه النطفة الجديدة

إنهم قادمون إليكم

ودولتكم زائلة وفانية

لقد ثبتوا وسجلوا بطلوتهم في التاريخ

أيها الطلاق لقد أرسلكم الله

هدية إلى هذه الدنيا والأمة !

لكنهم أطفاؤا كل شئ !! هؤلاء الذين أرسلهم الله !!

منعوا التعليم المدني ، وقصروه على تعليم ديني أشبه بنظام الكتاتيب ، ومنعوا تعليم البنات ، وألغوا التلفزيون ، وكسروا أجهزته في البيوت ، وحددوا البث الإذاعي بخمس ساعات في اليوم ، وحصروا البرامج في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و« ضرورات الإسلام» و« صراط الفلاح» وقد يتوقف الإرسال لانقطاع الكهرباء بسبب انهيار الشبكة وتدهور الخدمات ، لكن صوتا هادرا يأتي عبر الأثير لا يتوقف أبداً عن الصراخ " هنا قندهار .. دار الخلافة الإسلامية !!"

زار " عبد الحليم غزالى" المطبعة الأميرية الباقية من عهد الملك ظاهر شاه الذي حكم أفغانستان قبل الشيوعيين ، وتصدر هذه المطبعة صحيقتين أسبوعيتين هما " الخلافة" - ٢٠٠ - نسخة ، " وطلع أفغان" - ٢٠٠ - نسخة ومجلة باللغة العربية اسمها " الطالب" وهي شهرية ، وهذه المطبوعات تخدم أهداف طالبان وتقطن أخبارها وفتاواها ، وتشتمل المقالات على آراء قيادات الحركة وتكشف توجهاتهم ونياتهم .

ولاتقدم المطبعة شيئاً له قيمة غير الصحفتين والأوراق الحكومية والشهادات الدراسية . وعندهم مكتبة عامة وحيدة في قندهار مكونة من غرفة واحدة متوسطة المساحة معظم الكتب الموجودة فيها لأن باللغة الروسية « كانت الأثربة تحجب عنوانينها في مشهد ينتهي إلى ماضٍ أقل ». وفي مدرسة « أمير المؤمنين » التي تضم تلاميذ من أعمار متباينة تقتصر الدراسة على المواد الدينية ، ومنعت كل المواد العصرية.

وفي لقاءات مع مختلف مسؤولي سلطة طالبان تبين أن أغلبهم من غير المتخصصين مثل « محبوب الله » رئيس فرع البنك الوطني وهو لم يدرس الاقتصاد إطلاقاً ، ولم يكمل دراسته أصلاً ، ويؤكد ببساطة .. أن الاقتصاد الأفغاني دمر في السنوات العشرين الأخيرة ، ويمر بمرحلة صعبة جداً .. وأنه ضعيف جداً».

والعجب أن طالبان لم تطبع نقوداً حتى الآن ، والنقود المتداولة « تعود إلى العهد الشيوعي ، وعهد الرئيس المخلوع برهان الدين رباني ، والنقود التي طبعها دوستم تستبعد من التداول ».

وهكذا فإن جميع المسؤولين في بقية المجالات يتمتعون بذات الجهل ، والأكثر نشاطاً وفعالية بينهم هم أفراد جماعة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » الذين قاموا بمصادرنة كل الأجهزة ، المسجلات والتلفزيونات والفيديو والأشرطة والاسطوانات ، حتى الدفوف والدمى وألعاب الأطفال ، .. الخلاصة .. صادروا كل شيء ، وأظلمت حياة الناس تدريجياً ، وبدأ الليل من داخل رؤوس قادة طالبان ومن دورهم لينتشر واثقاً فوق البلاد ليغطي أنحاء أفغانستان ، وكان يداً خفية تكسر المصابيح واحداً تلو الآخر .. فنرى وطنياً كاملاً ينطفئ !!!

وفي « حضرة مولانا أمير المؤمنين » الملا محمد عمر « مكت « غزالى » - صاحب الكتاب ثلث الساعات فقط ، حددت له بصراحة ، زرعوا قبلها الرهبة في نفسه ، لحرمهما على إبقاء هيبة مزعومة على « أمير المؤمنين » وإحياطته بالغموض ، مثليماً هي عادة صناع الطفأة . وصف المؤلف غرفة « الملا أمير المؤمنين » بقوله : « ضوءها يكاد يكون غيشاً » . ويضيف .. صافحت الرجل الذيرأيت ملامحه بصعوبة ، شد على

يدى ، وقد بدا طوله فارغاً ، ولحت من طرف خفى عينه اليمنى المفقودة .. وتحلق حوله معاونوه ومستشاروه وذوى الحاجات ، واتخذوا الأرض موطنًا لاقدامهم دون جلوس كامل ، وقد بدأ بعضهم بالانصراف ليبدأ الحوار المبرمج ، الذى قطع شك التأمل بيقين الكلام .

وخلال الحوار القصير دافع أمير المؤمنين "الملا عمر" عن قتله الدبلوماسيين الإيرانيين بحجة أنهم غير مسجلين ، وأعرب عن استعداده ل الحرب بعيدة ، ورفض أية مصالحة مع المعارضة إلا إذا استسلموا لسلطة طالبان . وقال: " تلك الفتنة المجرمة والجماعة الخائنة التي باعت نفسها وبيلدها للمستعمرين الأجانب لن يقبل الشعب الأفغاني ولا الإمارة الإسلامية أن تشارك في الحكومة "

ثم أكد "أمير المؤمنين" أن تعليم المرأة متنوع وقاصر على العلوم الشرعية .. وأنهى المساعدون اللقاء بسرعة وحسم ، واستكمل "عبد الحليم غزالى" الحوار مع "وكيل أحمد متوكل" الذى يوصى بأنه "واجهة طالبان ولسانها" ، ومن المفارقات التى وردت ضمن إجاباته "أن الوضع كان سيناً والسبب تغريب الشريعة ، وعلى سبيل المثال كان اللواط منتشرًا بل إنه كان شيئاً عادياً وحتى بين قيادات من كانوا يوصون بالمجاهدين فى السابق".

وقال الرجل فى موضع آخر : "طالبان حركة وليس حزباً سياسياً .. وبعد السيطرة الكاملة على أفغانستان سيكون هناك نظام مختلف ، ليس بيقراطياً ولا ملكياً ، وكما قلت سيكون هناك مجلس شورى عام سيجرى اختياره بين الأفغان لكننى أشدد ، لأن يريد الديمقراطية الغربية أو النظام الملكي ."

وفى إجابة عن سؤال آخر قال "وكيل أحمد متوكل" لسان حال طالبان - " لقد أمرنا الناس بعدم تعاطى المخدرات ، لكن الزراعة مشكلة بالنسبة لنا ، فليس لدينا ما نقدمه لمساعدة الزراع كبديل للمخدرات ، خاصة أنها مصدر دخلهم الوحيد ، ولذلك فالزراعة مستمرة إلى أن نجد البديل " .

وفى كابول قضى "غزالى" عدة أيام تحت القصف والصواريخ التى لا تفرق ولا تعرف الرحمة .. فى الصباح ذهب لتفقد موقع الصاروخ ،

كانت الأشلاء قد جمعت في أوان بلاستيكية ، ورجال الإنقاذ يعملون بهمة بين الانقضاض ، لكن الحزن والخوف كانوا متوازيين في العيون التي خاصمتها الدموع !!

ويضيف : " غادرنا الموضع في ليل مخيف ، لكن الخوف تبدد شيئاً فشيئاً مع الاقتراب من احتواء كابول ، تلك المدينة التي شغلت العالم ، وبقيت مشغولة بحربيها وسلامها التعايش ، وعندما تتأمل أسواقها ولقط البيع والشراء تشعر أن المصواريخ التي تساقط ككرات السلة في الملعب هي في مدينة أخرى . إنها موت بلا خوف ، وحياة لا يستوقفها الموت " !!

وفي حديث مع المهندس " منير نجيب الله شمس " سكرتير عام المفوضية العليا للحد من المخدرات ، في إمارة أفغانستان الإسلامية " وفي إجابة عن سؤال عن حجم زراعة المخدرات في أفغانستان قال : " اعتماداً على إحصائية العام ١٩٩٧ التي أعدتها برنامج الأمم المتحدة للحد من المخدرات فإن (٤٥٨) ألف هكتار تزرع بالكوكnar (الخشخاش) في أفغانستان ويبلغ مجموع محصولها السنوي من الأفيون (٢٨٠٠ طن متري) !!

وكان أهم الأسئلة : هل طالبان متورطة في زراعة وتجارة الأفيون ؟ وأجاب عنه " الماي شيرزاد " مسئول أفغانستان في المكتب الإقليمي لغرب آسيا التابع لبرنامج الحد من المخدرات الدولي ، وكانت إجابته واضحة : " لا توجد لدينا أدلة على ذلك لكن البنك الدولي يقول إن المخدرات هي أحد مصادر دخل طالبان وحسب معلوماتنا فإنهم يأخذون العشر من " زراع الخشخاش " والعشر كما هو معروف " زكاة الزروع الشرعية " !!

وفي إحالة للتقرير وجدنا فيه - والكلام لمذلف الكتاب :- " أن أفغانستان هي المنتج الأول للأفيون في العالم ، حيث وصل حجم الانتاج إلى (٣٢٠٠) طن بزيادة قدرها ١٦٪ عن العام ١٩٩٧ ، وقدرت الأراضي المزروعة بالخشخاش بـ (٦٣٧٤) هكتاراً ، أما الحقيقة الأهم في التقرير فإن ٩٦٪ من إنتاج الأفيون يتم في ولايات تسيطر عليها طالبان ، بل إن ولاية بغلان التي استولت عليها طالبان في العام الحالي زاد إنتاجها من الأفيون بنسبة (١٨٤٪) ، ووفقاً لذات التقرير فإن ولايتى " قندھار " و " هلمند " الجنوبيتين و " ننجرهار " الشرقية توفر (٧٢٪) من أفيون أفغانستان ، وحسب التقرير

فإن قيمة الأفيون الأفغاني بلغت (١٠٥) ملايين دولار مما يجعله المحصول الأول من حيث دخل البلاد!!

وفي مسح للأمم المتحدة جاء « إن التجارة علنية داخل أفغانستان والأسواق مفتوحة للجميع فضلاً عن تجارة موازية تتم من البيوت ، وفي منطقة "سانجييان" سوق بها (٢٠٠٠) محل اسمه "سوق الأفيون" والتجار الصغار يأتون بالأفيون من الزراع حيث يختار التجار الكبار الأصناف التي يريدونها للتصدير تمهيداً لبيعها للبارونات الذين يحولونها إلى هيروين في باكستان أو طاجيكستان أو إيران لتأخذ طريقها إلى المستهلك الغربي . كما نقل صحفي غربي عن زارع خشخاش أفغاني : "الغرب يرسل لنا السلاح وطلقات الرصاص ونحن نرد بالهيروين !!"

وعن لحظاته الأخيرة في كابول يقول "عبد الحليم غزالى": " أحست في قلب آخر ليلة في كابول بانحياز كبير في أعماقى لهذه المدينة ، وأننى سافر حبيبة لم أر سوى وجهها البائش وحزنها الشامخ !!"

ولم ينس رغم مرارة العنوان والموضوع - طالبان - العمائم والمدافع والأفيون - أن يورد بعض النكات المبكية ومنها " أن جماعة من طالبان كانوا يستعدون لركوب طائرة هليوكوبتر فخلعوا نعالهم ، وطارت بهم إلى مكان بعيد ، وعند هبوطهم أخذوا يبحثون عن أحذيتهم !!"

وختم بجملة جارحة .. المهم أننى رأيت في أفغانستان من يضحكون ومن يلقون النكات ، وهذا هو الوجه الآخر الذى لا يراه كثيرون ، فالأفغان بشر ومهما بدوا قساة مع أنفسهم ، فالسمات البشرية تفصح عن نفسها دائمًا .

تحية للكاتب عبد الحليم غزالى الذي اعتمد الحكى العفوى كمنهج ماكر ، وكأنه لا يقصد ، فنقل الواقع حسب وقوعها دون تصنيف أو تبوييب ، ليفلع في النهاية أن يقص علينا أعجب وأوجع حكاية فوضى ناتجة عن مخططات محكمة ، قصد بها عن عمد إغراق ذلك البلد التensus والدول الإسلامية في معارك لانهاية لها ، وأن تجوس في مستنقع المدرارات والأسلحة ، وكلما حاولت الخلاص غاصت أكثر ، لتلطيخ أوحال الجهل . العمائم وتجللها بالعار ، وتخسب لهى الظلاميين بحناء خيانة الدين والوطن !!

فى حديث غير معروف،

جان جينيه،

كنت طيلة حياتي ضد

مات جان جينيه كما عاش فى فندق ، شريداً مجهولاً (١٥ أبريل ١٩٨٦)،
ظل يجرى بين اليونان ، تونس ، المغرب وقليلون هم الذين يعرفون مخابثه
الإجرامية . قليل الكلام وربما إنـه كان يكره الكلام ، لهذا هـم قليلون أولئـك الذين
استطاعـوا أن يـسجلـوا معـه حـوارـا . وأيضاً لأنــى فى كـلامــه القـليل حـقدــاً كـبـيرــا ،
مـغـلــفــاً بـبعــضــ الأــدــبــ ولكنــه حـقدــ علىــ كلــ حالــ حـقدــ علىــ أولــئــكــ الذينــ دــاســوهــ ،
أــهــانــوهــ .. طــلبــ منهــ مــيــتــرــانــ وجــاكــ لــانــغــ آنــ يــرــســلــ رــســامــاــ يــرــســمــ لهــ لــوــحةــ :
فــأــجــابــهــماــ: أــنــا لــى اــســمــ عــائــلــى وــاســمــ شــخــصــىــ، ماــذــا تــرــيــدــونــ أــنــ يــكــونــ لــىــ تــعــثــالــ .
أــيــضاًــ .

* أــلــفــ فــرــنــســاــ حــكــمــ الإــعــدــامــ . أــرــيدــ أــنــ أــعــرــفــ مــدىــ التــاثــيرــ الــذــى تــرــكــ فــيــكــ
أــنــ تــعــلــمــ أــنــ لــنــ تــقــطــعــ رــؤــوســ فــيــ فــرــنــســاــ بــعــدــ الــانــ .^٩

* لمــ أــكــثــرــ لــهــاــ بــتــاتــاــ، فــقــرــارــ إــلــقاءــ الإــعــدــامــ قــرــارــ ســيــاســىــ . الســيــاســةــ
الــفــرــنــســيــةــ لــاــ تــهــمــنــىــ .. ماــ دــامــتــ فــرــنــســاــ لــاــ تــهــمــ بــتــلــكــ الســيــاســةــ الــتــىــ يــســمــونــهــاــ
شــمــالــ /ــ جــنــوبــ ، ماــ دــامــتــ فــرــنــســاــ لــاــ تــولــىــ مــزــيــداــ مــنــ الــاهــتــمــامــ بــالــعــمــالــ
الــمــهاــجــرــيــنــ أوــ الــمــســتــعــمــرــاتــ الــقــدــيمــةــ، فــإــنــ الســيــاســةــ الــفــرــنــســيــةــ لــاــ تــهــمــنــىــ فــىــ شــىــءــ .
لــاــ يــهــمــنــىــ كــثــيرــاــ أــنــ تــقــطــعــ رــؤــوســ الــبــيــضــ أــوــ لــاــ تــقــطــعــ . تــصــفــيــةــ الــحــســابــاتــ الــتــىــ
تــنــمــ بــيــنــ أــلــئــكــ الــذــيــنــ كــنــاــ نــســعــيــهــ الــصــعــالــيــكــ وــالــقــضــةــ لــاــ أــهــمــيــةــ لــهــاــ بــالــنــســبــةــ
لــىــ .

* لــاــ يــهــمــكــ حــقاــ أــنــ تــحاــوــلــ تــقــلــيــمــ العــقــابــ أــوــ إــلــفــاءــ .^{١٠}

- * في فرنسا ، لا ، لا يهمني.
- * في حالة ما إذا تم الوصول إلى إنشاء مجتمع لا عقاب فيه ، ألن يجعلك هذا مرتاحا بدرجة أكبر؟
- * أن تصنف ديمقراطية في البلد الذي كان يسمى قديما البلد الأم Metropole ، بهي في النهاية ديمقراطية ضد السود أو ضد العرب . الديمقراطية موجودة في إنجلترا منذ زمان ، بين الانجليز على الأرجح ، معرفتى بالتاريخ الإنجليزى سيئة ، ولكننى أعتقد أن الديمقراطية الانجليزية ازدهرت لفترة طويلة عندما كانت الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية مزدهرة ، إلا أنها كانت تمارس ضد سكان الهند.
- * تعتقد أن ترف البلدان الفنية الاقتصادية والسياسى يؤدى ثمنه العالم الثالث؟
- * لا أرى غير هذا الحد الساعية.
- * وما هو المجتمع الذى ترتاح له ، يعني الذى يشير اشتراكك بدرجة أقل؟
- * هنا لا أستطيع أن أجيبك سياسيا ، وإنما دينيا تقريرا الشر ، كما الخير جزء من الطبيعة البشرية ، ويعبر عن نفسه من خلال الرجال والمجتمعات . أنا لا أدين . لا أعرف ماذا سينتاج عن الامبراطوريات الاستعمارية القديمة ، لا أعرف ما يكتونون قد حملوا من خير . ولكننى أعرف ما جلبوا من شر . ربما جلبوا معهم بعض الخير أيضا . إنما كل هذا متشابك جداً لدرجة أننى لن أكون راضيا عن أي نظام سياسى كيما كان .
- * هل هذه هي الموضوعية؟
- * ليس الأمر كذلك فى الثالث . ها أنت ترى . لقد اتخذت موقفا . لم أبق غير مكتثر . عندما كنت فى ميتري (سجن) أرسلت إلى سوريا . وكان الرجل القائم على سوريا أنداك هو الجنرال غورو ، ذلك الذى لا يملك سوى يد . كان قد قضى دمشق . وبما أننى كنت أعرف قليلا من العربية ، فقد كنت أخرج من إلى العسكرى فى الرابعة وأعود وقتما شئت . والأطفال كانوا يجدون لذة كبرى وهم ينقلوننى بين الخرائب التى تركتها مدافع الجنرال غورو . فى النهاية ، كانت عندي رؤية مضاعفة عن البطل والوغد الذى كان غورزو (..).

- * كيف تفسر أنه بدل أن تكتب بالعامية أو تختبر لغة، استعملت لغة العد، يعني اللغة الجميلة ، لغة السلطة ، ستكون في النهاية كتبت لغة الجنرال غورو؟.
- * لست متأكداً من أن غورو كتب لغتي ولكنك على حق، كان على أن أفتر هؤلاء الذين تتحدث عنهم ، هؤلاء الذين تنتهي إليهم بدون شك، الانتلوجنسيا الفرنسية.
- * سؤال : هناك مجازفة عندما نكتب مثلاً يكتب جان جينيه . يقول الجنادون : «إنه ليس خطيراً ، فهو يكتب بشكل جيداً الاستقطاب عن طريق الجمال ! هل يمكن أن نقارن الطريقة التي توظفون بها لغة «الجلاد» بالكيفية التي تمسك بها الخدمات لباس السيدة (مسرحية الخدامات) ، أم أن الأمر أكثر طبيعية لديك؟ هل تخضع في قراراتك ، وأنت تعانق موسيقى وجمال اللغة هذه لاستراتيجية ما أم لغيرها؟.
- * أود أن أجيب أنها استراتيجية ، ولكن رغم كل شيء ، فقبل أن أنهب إلى ميتري ، كنت في المدرسة وتعلمت الفرنسية على أية حال.
- * هل تقرأ الأشياء التي ظهرت حديثاً عن طيب خاطر؟.
- * آخر كتاب حاولت قراءته كان لريموند أبيليو ولكنه بدا لي غامضاً ومكتوباً بطريقة سيئة جداً.
- * قلت إن راميوا «اختار» المصمت . هل اخترت أنت أيضاً؟.
- * لا أعرف السبب الذي من أجله اختار راميوا المصمت، قلت إنه فهم أن عليه أن يصمت . أما أنا فيبدو لي أننى كتبت ما كتبت من أجل الخروج من السجن ، ما دمت أنجذب كل كتبى في السجن . وعندما خرجت لم يعد لوجود الكتابة معنى . كتبى آخر جتنى من الحبس . ماذا أقول بعد ذلك؟.
- * هناك جزء منك ما يزال في السجن؟.
- لا . أى جزء منى على الأقل ذكرى أولئك الذين ماتوا هناك ، أو ما يزالون هناك بعد الان؟.
- * لا يبقى جزء مني بدرجة أكبر في البلدان التي استنزفها الفرنسيون كالغرب والمالي .. وأخرين.
- * لم تواتك فكرة أن تكتب من أجل أن يخرجوها هم أيضاً من السجن؟.

- * لا أذكر لك أن إلغاء الإعدام لم يحرك فيَ شيئاً . أنا لا أقول بوضع الناس في السجون ، إنما القضية تبقى بينهم وبين القضاة ، والحكومة .. إلخ ، وليس بينهم وبيني .
- * كثيرون نحن الذين نأسف لهذا الصمت .
- * سوف تشفون .
- * لنعد إلى اختيارك للفة الكلاسيكية لماذا ؟
- أشياء بتلك الخصوصية وتلك الفرادة لم أكن لأقولها سوى بلغة تفهمها الطبقة المسيطرة . كان على أولئك الذين أسمياهم « جلادين » أن يسمعوا ، إذن على أن اعتدى عليهم في لغتهم .
- * ما تقوله « للجلادين » لا يمكن احتماله .
- * الجنادون الحقيقيون لا يقرءونني في الحقيقة .
- * ولكنهم يهابونك . يعروفون أنك موجود .
- * لا يهمهم . لا يهمهم ذلك . لا يجب أن نعطي لهذا كل هذه الأهمية . لا يجب المبالغة في تقدير ذلك .
- * هل يمكن إعطاء مثال عن اختيارك التحوي ؟ .
- * تبدأ الجملة الأولى من أول كتاب كتبت هكذا : « فيديمان بدا لكم » وطلب مني المصحح المطبعي أن أصححها بتبدل «كم» بـ «نا» قال لي : إن المقصود هو « فيديمان بدا لنا » أليس كذلك ؟ ولكنني أصررت على الاحتفاظ بـ « بدا لكم » لأنني بدأت إذ ذاك أسجل الاختلاف بينكم أنتم الذين أتكلم إليكم وبيني أنا الذي أكلمكم .
- * بدأت تبعد نفسك ؟
- * بدأت أبعد نفسي ، ولكن مع مراعاة القواعد ، قواعدكم .
- * لم تسن أبداً قواعد أنت بنفسك ؟
- * أعتقد في النهاية أنني طيلة حياتي كنت ضد، ضد القواعد البيضاء .
- * ماذا تقصد بكلمة بيضاء ؟
- * قواعد البيض . أريد أن أقول إنني حتى الآن . وقد بلغت ٧٢ عاماً ، ليس لي حق الانتخاب ، ولو أنك تعتقد أن هذا تقليل الشأن . أنا لا أنتهي إلى المواطنين الفرنسيين .



19
2009

بالآخرى ممتعًا؟

* نعم وودت لو أعبد الكرة مع ماريا كازاريس فى الكوميديا الفرنسية
التي طلبت مني الشرفة (مسرحية) . ولكننى لم أستطع أن أقوم بهذا . لم
يكونوا يرغبون فى كازاريس . إذن فهى أكثر خطورة منى.

* مسرحية المواجه تقدم الموت كشن غير رهيب فى النهاية وليس له
أهمية كبيرة . هل هذا رأيك؟

* إنه رأى مالارميء أيضًا : « هذا الغدير القليل العميق .. » تعرف البقية ،
يبدو لي الموت ... على أي المرون من الحياة إلى اللاحياة ليس بتلك الدرجة من
الحزن ، قليل الخطورة بالنسبة للشخص عندما يغير العبارات العبور من
حياة إلى لا حياة بدل من حياة إلى موت . يبدو الأمر دفعة واحدة منفريا
تقريباً أليس كذلك؟

تغيير العبارات هو المهم . تهويين المأساة Déramatiser . العبارة
مستعملة حالياً على نطاق واسع . تهويين الموقف . أهون من الموقف الذى
سيجعل مني ميتاً باستخدام كلمات أخرى

* مؤلف درامي يهون من الدراما؟ مؤلف مأساوي يهون من المأساة؟

* تماماً . إذا كنت حاولت أن أنجز شكلًا مسرحيًا ما فذلك لأصفى حساباتى
مع المجتمع . الآن لم يعد يهمنى . صفيت الحسابات .

* لست غاضبًا؟ لا مأساة لك؟

* إنى أؤكد هذا بشكل حاسم ، بشكل متأنص لدرجة أننى أتساءل هل الأمر
حقيقة لاغضب فيه ولا مأساة . هنا وضعت اصبعك على شيء ما . أعتقد أننى
ساموت وأنا غاضب عليكم .

* والحق؟

* لا أتفنى ألا يكون الأمر كذلك؟ أنت لا تستأهلون حقدى؟

* ومن الذى يستأهل؟

* الأشخاص القلائل الذين أحبهم بشكل عميق ، والذين أشفق عليهم .

* حدث لك مع ذلك أن أحببتك أوفادا؟

* أنا لا أضع نفس التفرقة التى يضعها سارتر بين الأوغاد والآخرين . وبما
أننى غاجز عن تعريف الجمال ، أجد نفسي عاجزاً وبشكل مطلق عن تعريف

الحب ومعرفة .. الرجل الذى تتح نظرتك الموضوعية ، قد تسميه وغدا ،
يصبح غير ذلك تحت نظرتى الذاتية .. انظر عندما أعطى هتلر للفرنسيين
« طريحة » نعم. كنت سعيدا . كنت سعيدا لهذه الطريحة .. لقد كان الفرنسيون
جبناه.

* وما كان يفعله هتلر فى معسكرات الإبادة ، هل هو طريق أىضا؟ .

أولا لم أكن أعرف حقيقة الأمر . أؤكد لك ، ولكن الأمر يتعلق بفرنسا
وليس بالشعب الألماني أو الشعب اليهودي أو الشعوب الشيوعية التى قد
يكون هتلر ذبحها . يتعلق الأمر بالتأديب الذى لقنه الجيش الألماني للجيش
الفرنسي .

* وهذا بدا لك مسليا؟ .

* مسل جدا ، أؤكد لك .

* والطريحة التى تلقاها هتلر بعد ذلك ، هل أمنتلك هي الأخرى؟ .

* كنت قد أصبحت لا مباليا آنذاك . كان الفرنسيون قد بدأوا تصريحهم
المخزى فى الهند الصينية ، فى الجزائر وفي مدغشقر .. إلخ ، أنت أيضا تعرف
القصة خيرا منى .

* في المجمل ، أنت لا تنتتمى إلى أي وطن؟ .

* لا بالطبع .

* إذا كان عليكم أن تضعوا تعريفا للوطن ماذا سيكون؟ .

* لقد فعلتها مرة فى جريدة « الإنسانية » وأنا أمزح . طلبت منى الجريدة
أن أكتب نصا . الوطن بالنسبة لي ثلاثة أو أربعة أشخاص . كنت انتمنى إلى
وطن لو أنى أحارب ، وأنا لا رغبة لي فى أن أحارب لا من أجل الفرنسيين ولا
من أجل أيًا كان ، ولا حتى من أجل الفهود السود . لم يكن الفهود السود
ليحبذو أن أحارب من أجلهم .

* غالبا ما تكون الحروب حروب أيديولوجية ، ومزية ، والفنان واحد فيها
بالتالى مكانه . ألم تشعر أبدا بأنك تحارب بالقلم؟ .

* أنت تتكلم كسيمون دي بوفار .

* لا يحارب الشخص بالقلم؟ .

* لا . شاركت بالطبع فى مظاهرات مع سارتر ، مع فوكو ، ولكن لم يكن

لذلك أية قيمة مع شرطة محترمة جداً . كانت هذه الشرطة تؤسس تواطؤاً معنا جعلتنا شركاءها في التواطؤ . شرطة سريالية .

* وإن يكتب المرء ليخرج من السجن ، ولكنه لا يغير العالم؟ .

* لست أنا على أى حال . لا .

* وهل يتغير الآخرون بشكل فوري؟ هل يتغير القارئ؟ هل هناك كتب غيرتك؟ .

* لا . في النهاية . أعتقد ، دون الأدلة بحجج ، أعتقد أن هناك عاملات ذاتياً لا تستطيع أن أجد لها تسمية أخرى يتعارض مع التربية التي تأثرت من الكتب . ومن اللوحات أو من أشياء أخرى ، أى مع التربية التي نتلقى . أنا عاجز عن تبيين الحدود . ولكن كل إنسان يصنع غذاءه من كل شيء . إنه لا يتغير من جراء قراءة كتاب أو مشاهدة لوحة أو من جراء موسيقى إنه يتغير شيئاً فشيئاً ، ومن كل هذا يصنع شيئاً يوافقه .

* وإذا ما قال لك «جلاد» أن قراءة جان جينيه قد غيرته ، وأنه صنع منها غذاء؟ .

* إذا ما حدث شيء كهذا فسأطلب منه أدلة .
* أدلة؟ .

* عليه هو أن يدللي بها؟ .
* بواسطة أفعال؟ .

* لا أعلم . لا أعتقد أن ما كتبت يمكن أن يبدل الإنسان . يستطيع أن يكره ما كتبت ، أو أن يؤيده . على أى فالجلاد ليس جلاداً تماماً . أنت الذي تكلمينى الآن ، فيك جزء من المتهم ، لا تستطيع أن أتبينه بشكل واضح ، إنما هذا راجع لكونك لم تضع قدمك أبداً في الجهة الأخرى .

* ولكن أنظركم تغير سارتر بسببك؟ .
* لا .

* أعتقد أن الأمر كذلك؟ .
* لا . لا .

* أنا متاكد على أى . لقد تغير بسبب ما كتب عنك . هل تغيرت أنت أيضاً بسبب ما كتب؟ .

- * أنا لم أقرأ كل ما كتبه سارتر، قراءته مملة.
- * بغض النظر عن هزيمة ١٩٤٠، هل هناك أحداث أخرى انشرحت لها بنفس القدر؟
- * نعم كان هناك تصرف الجزائريين والفيتناميين الشماليين الراهن في مواجهة الفرنسيين والأمريكيين بالطبع.
- * تتضمن نفس المستوى هزلاء وبطولة أولئك؟
- * ليس في نفس المستوى تماماً. لقد استطاع الفيتناميون الشماليون، ليس بفضل ذكائهم فحسب، وإنما بسبب تلك الأشياء الراهنة التي اخترعواها وأشياء أخرى، استطاعوا أن يجبروا سفير سايغون على أن يحمل علمه تحت إبطه ويرحل. أليس هذا أمراً مضحكاً؟
- * يبدو أن اليساريين الفرنسيين القدامى قد اختاروا اللاعنف. كيف كانت ستتصرف لو كان الأمر غير هذا، لو سار الإرهاب كما هو الشأن مع الآلية الحمراء؟
- * منذ قليل قلت لك سني. لن أصلح لشئ كبير، ما دمت ضعيف البصر، ولكنني بكل تأكيد سأكون بجانبهم.
- * حتى ولو أدى هذا إلى وصول دولة أكثر قمعاً.
- * ستكون قمعية ضد من؟ ضد شرذمة من البيض لم يحرجها في شيء ممارسة القمع سواء في الجزائر أو المغرب أو أي مكان آخر..
- * بعبارة أخرى منطقكم كالتالي : لا يهم أن تسمو الدول البيضاء بعضها ما سامته لغيرها؟
- * بشكل من الأشكال. بل أقول : كذلك أحسن.
- * لا تبتسם أبداً بهذا الشكل إلا عندما تصف مصيبة ما..
- * مصيبة من؟ ليست مصابيح البيضاء هي التي ستجعلنى أبتسם.
- * ولكنك تعرف جيداً أن دولة عندما تنتقى فإن أول من يتکيد الخسارة هم الفقراء.
- * الفرنسيون ليسوا فقراء. الفقر الحقيقى فى فرنسا هو العامل المهاجر. الفرنسيون ليسوا فقراء. إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت إمبراطورية استعمارية.

- * على أية حال هناك خمسة ملايين فرنسي يتقاضون أقل من ٢٠٠٠ فرنك، هذا كثير.
- * لا ليس بالقدر الذي تتصور بالنسبة لـ ٣٥ مليوناً.
- * ليس هناك فقراء في فرنسا؟.
- * فيما يخص الفرنسيين، نسبياً أقل من مكان آخر، ربما ليس أقل من ألمانيا الغربية أو السويد، ولكن أقل من أمريكا حيث هناك في بعض غيتوات السود بؤس رهيب.
- * أنت تخضع تعييزاً نهائياً بين بؤس البيض وبؤس الآخرين.
- * لست أنا الذي يضع التمييز.
- * المسألة تبدو لك أقل جوراً عندما يتعلق الأمر بالبيض، لا تحرك شعورك؟.
- * يعني أن السود لحد الساعة لم يمسووني بسوء.
- * كما لو أن الأمر ليس خطيراً بالنسبة لك إذا ما استعبد الآبيض، تماماً.
- * أن أكون أبيض فهذه تهمة؟ نوع من الخطيئة الأولى.
- * لا أعتقد أن الأمر يتعلق بالخطيئة الأولى. ليست تلك الخطيئة التي يتحدث عنها الانجيل لا، إنها خطيئة مقصودة.
- * على ما أعتقد لم تكن ترغب في أن تكون أبيضاً؟.
- * كوني ولدت أبيضاً وتصرفت ضد البيض، فأنما بهذا المعنى لعبت على كل الواجهات في نفس الآن. أنتشي عندما يتالم البيض وأنا محظى من طرف السلطة البيضاء، ما دام جلدي أبيضاً ولـ عينان زرقاوـان..
- * أنت في الجانبين معاً؟.
- * نعم، في الجانبين معاً.
- * وضعية تعجبك؟.
- * على أي فإنها وضعية سمحـت لي بأن أجـلب الفوضـى داخلـي أنا نفـسي.
- * هناك مسرحية اسمـها الزنوج تمـكـنـتـ هذهـ الأشيـاءـ بشـكـلـ جـيدـ.
- * نـعمـ، ربـماـ.
- * تـتحـدـثـ عنـ الجـمـالـ أحـيـاـناـ، جـمـالـ شـفـقـ، جـمـالـ وجـهـ، ماـ هوـ الجـمـالـ

بشكل عام؟.

- * ليست هناك علاقة بين جمال وجه أو جسد وبين بيت من شعر راسين بالطبع . إذا ما أشع وجه وجسد بالنسبة لي فربما لا يحدث نفس الشئ بالنسبة لآخرين.
- * لكل جماله إذن ، سواء بالنسبة لراسين أو بالنسبة للوجه؟ ليس لك تعريف للجمال؟.
- * لا . ولكن هل لديك مثل هذا التعريف يهمنى أن أعرف ذلك.
- * لا. جمال جيني هو المهم . إذا ما قبيل لك إن وجهه يشع ببراءة عارمة ، هل يحرجك هذا؟.
- * لا.
- * هل يجعلك هذا راضيا عن نفسك؟.
- * نعم إلى حد ما . لأننا أصبحنا نعرف الآن أن الأبريةاء شيطانيون.
- * نجد لذة في أن تحمل وجه البراءة . وتكون عالماً أنك شيطاني؟.
- * أنا لا أملك وجهها بريئا . عندما تقول لي إنني أملك هذا الوجه، فبالامر كذلك، وإذا فكرت أنني لا أملكه فإنه لا أملكه . ولكنني أحس بمحنة أكبر إذا ما قلت لي إنني أملك هذا الوجه وإنك تفكرا بأن الأمر كذلك.

ذكرى

جاتك وفضيحة يا طبقة سطحية،

الذكرى الخامسة لفنى الشعب، الشيخ إمام

أشرف الصباغ

فى العدد (١٥٥) لشهر يوليو ١٩٩٨ م من مجلة «أدب ونقد» نشرت مقالاً عن الذكرى الثمانين لميلاد إمام عيسى . وفى العدد (١٩) لشهر يونيو ١٩٩٨ م من مجلة «سطور» نشرت حواراً كنت قد أجريته معه عام ١٩٨٧ م بعد عودته من رحلته إلى الخارج . وقامت مجلة «القاهرة» فى عددها (١٥٢) لشهر أغسطس ١٩٩٥ م بنشر ملف كامل (٧٠ صفحة) عن الشيخ إمام جمعت فيه قدرًا ضخماً من المقالات التى كتبت عن هذا الفنان منذ عام ١٩٦٨ م إضافة إلى المقالات التى كانت قد كتبت فى وقتها . ولعل «أدب ونقد» قد نشرت العديد من الموضوعات المهمة عن إمام عيسى قبل رحيله وبعد ، هذا طبعاً إلى جوار ما نشرته مجلة «الكوكب» من مذكرات الشيخ إمام ، ثم عادت «أدب ونقد» لتنشر الفصل المتنوع من هذه المذكرات . ومع ذلك فحتى الآن لم نر بعد كتاباً يجمع ما كتب عن إمام عيسى وبالصور (حتى ولو فى سلسلة كتاب «الأهالى»).

خلال هذه الفترة (١٩٩٦ - ١٩٩٧ م) وأثناء الزيارات الخاطفة إلى القاهرة ، كان الحديث يدور ويتجدد بينى وبين العديد من المعارف والأصدقاء فى كل

مرة عن الشيخ إمام، وعن فنه، وعن حياته بشكل عام. واكتشفت تدريجياً، خلال هذه السنوات الأربع، أن هناك إزاحات ما تحدث في وجهات نظر أولئك الأصدقاء والمعارف «المثقفين»، فبعد أن كان الكثيرون منهم يلزموه ويزورونه ويأكلون «عيش» من الكتابة عنه وإجراء الحوارات معه، بعد أن كان الكثيرون يعتبرونه أحد أمجاد فن الموسيقى المصرية والعربية، ومغني الشعب، ورفيق البسطاء ولسان حالهم، وأحد أهم مجربي النغمة الشعبية المصرية، وأحد أهم المغنين الذين تمكنا بحرفيّة عالية من تلحين الكلام وغنائه، بدأت الآراء «تنزاح» تدريجياً إلى أنه «راجل على باب الله»، ومجرد مغن ضرير «حافت» الظروف إياها في الطريق إياه. ورغم أنني لا أبرر كل هذه الإزاحات، إلا أنني أعرف دوافعها وأسبابها وبواطنها والظروف المحيطة بها من جانب المثقفين بشكل عام، والمثقفين الذين رافقوه أو تعاطفوا معه على وجه الخصوص ومع ما يطّرحوه من روؤية فنية عامة و شاملة. ولكن الأمر الذي سبب لي ألما شديداً وحزناً وتوتراً إلى درجة مرضية وصلت إلى حد «القرف» هو إعلان أحد المطربين في لقاء خاص عاير أن الشيخ إمام مجرد مغن ضرير ساعده ظروف ما فلعل على أحزان المثقفين وعاش «استرزق» على قفا «السياسة». وأنه -أى هذا المطرّب- قابله ذات مرة في بداية التسعينيات، على السلم، في مبنى الإذاعة والتلفزيون، فسألته بسخرية عن سبب مجيئه إلى «هنا» فأجابه الشيخ إمام: «أكل عيش»!.

منذ سنوات طويلة والعديد من المخلصين يطالبون بجمع وتحقيق التراث الموسيقي والغنائي لإمام عيسى. وقامت العديد من المجموعات الشبابية بتكوين فرق فنية لإحياء هذا التراث والحفاظ عليه -نسبياً- من الاندثار، ومنها على سبيل المثال فرقة «عفاريت الشيخ إمام». هذا إلى جانب المحاولات الفردية لبعض الفنانين الشبان لإحياء بعض الأغانى وأغانيه، والفيلم



Geff
Céleste

التسجيلى الذى أعده المخرج سميح منسى بعنوان «الشيخ يغنى» . ويبدو أن كل هذه المحاولات لم تستثمر وبالتالي لم يتحقق المراد منها بشكل كامل لسبب أو لآخر ، أو لأنسباب كثيرة . وطبعاً فمحور المسرح حال تماماً من محاولات بعث وإحياء أعمال إمام عيسى الفنية . وأقصد بذلك أن هناك تجاهلاً بدرجات متفاوتة وابتعداً عن استخدام أعمال إمام عيسى فى الأعمال المسرحية . ولعل مهرجان القاهرة العالمى للمسرح التجريبى هو أحد أهم الأشكال التى يمكن أن يشارك فيها فنانون مسرحيون بأعمال يتم فيها استخدام موسيقى إمام عيسى وأغانيه ، بل ويمكن إعداد نصوص مسرحية «مونودrama» ليس بالضبط عن إمام عيسى (مع أنه ليس هناك ما يمنع من ذلك) وإنما عن استلهام مثل هذا النمط وإبراز الجوانب الإنسانية / الفنية / التاريخية فيه وفي فنه . والامر لا يقتصر فقط على المهرجانات وإن كانت حتى عالمية ، فتجارب مسرحية مهمة مثل تجارب المخرج أحمد إسماعيل يمكنها أن تستوعب مثل هذا الجانب الفنى الشعبي من الموسيقى والفناء خاصة أن أحمد إسماعيل ما زال مصمماً على الاستمرار في تجاربه فى القرى والنجوع وبين البسطاء بل وحتى فى المسرح القومى على حد سواء . أى أن تجارب هذا المخرج تسير بشكل متواصل ومتتنوع وبدأب شديد دون النظر إلى المهرجانات والجوائز ، لأن الهم الأساسى لديه ، الذى يظهر من خلال مسيرته الفنية الطويلة ، هو عمل مسرح مصرى شعبي حقيقى له علاقة بأكبر قدر من الناس ، خاصة الذين لا يمكنهم أن يرتفعوا إلى مستوى المسرح القومى أو مسرح السلام أو مسرح «الهزار» ، من هنا بدأ أحمد إسماعيل مشواره الفنى بالذهاب إلى هؤلاء الناس فى قراهم ونحوهم وحواريهم . فماذا لو بدأ أحمد إسماعيل التعامل مع تراث إمام عيسى وغيره من فناني مصر الحقيقيين فى إطار مشروعه المسرحى؟ .

وهكذا ، فقد كنت قد نويت الكتابة عن الشيخ إمام وعن فنه فى الذكرى

الخامسة لوفاته تماشيا مع السائد : الكتابة عن الراحلين ليس في ذكرى ميلادهم ، وإنما كما جرى العرف عندنا في ذكرى وفاتهم! أقول ذكرى الكتابة مرة أخرى عن فن إمام عيسى وحيويته واحتياج البسطاء إليه ليس فقط في فترات المد الشعبي والظروف السياسية والاقتصادية السيئة (كما يدعى البعض) ، وإنما أيضا في كل الفترات والأوقات والظروف. ولكن حدث أن أعدد التفكير في شكل الموضوع وفي مضمونه أيضا عندما «شرفتنى» اللحظة الاجتماعية- الاقتصادية- التاريخية بافتتاح مجمعات «سينسبري» (أثناء وجودى في القاهرة في مارس- فبراير ٢٠٠٠م) ، ثم الأخبار التي توالت بعد ذلك عن إنشاء شركة باسم «مصريتنا» برأى عدد كبير من «التجار» المصريين الذين تضررت «تجارتهم» بالدرجة الأولى وربما الوحيدة من قسوة المواجهة مع « أدوات العولمة المتوجهة».

هنا طرحت على نفسى مجموعة من الأسئلة التى بدت ، كما ستبدو لغيرى ، سانحة : لماذا صرحو بطباعة الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر أحمد فؤاد نجم التى تمثل قدرًا كبيرا من المادة الفنانية للشيخ إمام؟! كيف تلقي العديد من قصائد نجم فى المقلات والمهرجانات الحكومية فى مصر والدول العربية والخليجية ، وهى القصائد التى كانت أحد أسباب اعتقال نجم وإمام معا وقرارهما الدائم، على الرغم من أن القوانين لم تتغير لأن الدستور ببساطة لم يتغير؟! هل فعلا كانت آثاره وأغاني إمام عيسى مؤقتة ولحظية وصالحة فقط لـ«الجو» السياسى فى نهاية السنتينيات والسبعينيات والثمانينيات؟! إذن لماذا لم يصرحوا بإذاعة أغاني إمام عيسى فى الإذاعة مثلما صرحو بـ«القاء قصائد نجم فى المهرجانات والاحتفالات العامة»؟ هل أصبحت قصائد نجم مجرد «أنتيكات» يمكن الفرجة عليها؟! إذن لماذا لا يعتبرون أن أغاني إمام ، بالمرة ، أنتيكات «أيضاً ويدفعونها على الناس ، وطبعا سنترك الحكم لهم- أى للناس -استنادا إلى مبادئ الديمقراطية

لا يمكننى ادعاء القدرة على الإجابة عن هذه الأسئلة الصعبة . ولكن ما أعرفه أن «الجو» العام حاليا يعطى إمكانية لأن يصبح محمد عبد الوهاب أحمس الموسيقى العربية ، والسيد مكاوى ، بالقطع إخناتون الموسيقى الشعبية المصرية العربية ، وكاتب هذه السطور «مما لا شك فيه» ، توت عنخ أمون موسيقى الربابة والأرغون فى نجع حمامى وشارع محمد على وميدان لاظوغلى . ناهيك عن أنتا سوف نعجز ، حتىما ، عن إيجاد أسماء مومياءات أخرى للعديد من عباقرة مصر الموسيقيين بدأية من مصطفى الأخضر وعلى تقه وأحمد كبارة ، ونهاية بحسن النشال وعبد الحفيظ السنهورى عبد الحق الشهير بسماره وأحيانا بباباطة . ويتبضع فى النهاية أنتا نعمل بتعهد ودأب وإصرار على تفريغ أبطال مصر التاريخيين وإلى جوارهم «حكام» مصر الفراعنة الأشاؤس من مسامينهم وتحويلهم فعلا (عاطل مع باطل) إلى مومياءات للسياحة ، ثم نعود لنطلق أسماء هذه المومياءات السياحية على أحياء أو أموات من أجل تضليل القارئ والمستمع وتفریغ التجارب الفنية وأصحابها من مسامينها الحقيقة .

وبما أن نسبة الأمية في مصر تصل إلى ٦٨٪ (حسب الإحصائيات الحكومية الرسمية)! فمن الجائز تماماً، ومن الضروري ، أن تنتشر «الديمقراطية» الخاصة بنشر الكتب ومن ضمنها طبعاً كتب «الشعر» الذي كان ممنوعاً بالقانون وبغيره . بل يمكن أن يصل الأمر إلى إشاعة «الديمقراطية» و«الحرية» على مساحة أوسع لكي تلقى قصائد الشعر - التي كانت ممنوعة - على الملأ، لنكتشف أن هذا الملأ هو نفس الملأ الذي كان يتناول هذه القصائد سراً في زمن ما. إذن فلماذا يعتبرون الشعب قاصراً بالنسبة للديمقراطية في جانبها السياسي؟ ولماذا لا تنسحب «الديمقراطية» السعيدة ، «الحرية»

السامقة على أغاني مثل أغاني إمام عيسى؟ هل لأن ٦٨٪ (ولعلني أعتقد أنهم لا يقلون عن ٨٠٪) سوف يفهمونها جيدا ، سوف يثبتون بذلك أنها صالحة حتى في بداية القرن الحادى والعشرين خلافا لادعاءات البعض التى تحاول ترسیخ العكس؟.

إن أغاني إمام عيسى تتوجه إلى قاعدة جماهيرية عريضة، وتلتزم باستخدام لغة هذه القاعدة وثقافتها وأشكال تعبيرها ، وهذا ما يمنحها سحرها وأهميتها وخطورتها حتى في عصور الديمocratيات «الشماء». وبالتالي نجد أنفسنا فعلا أمام فن شعبي حقيقى يرتكز على إيقاعات لحنية شعبية وموسيقى ساخرة، بل حتى استطاع صاحب هذا الفن أن يستخدم إيقاع التلاوات القرآنية المختلفة ليتنسج منه إيقاعات لحنية نادرة في الفن الموسيقى المصرى . هذا طبعا إلى جانب قدرة إمام عيسى على تأسيس أداته الغنائية على عناصر أداء عريقة في القدم مثل تنويمات الأطفال والموال الريفي والأهازيج المتنوعة للشارع والحارة والحفل والمصنوع والمبناء . ولعل هذه العناصر هي التي جعلت من فن إمام عيسى (الموسيقى والأداء) فناً غير تقليدي، ومادة خاماً ضخمة جاهزة في آية لحظة (أقصد لحظة التعامل الجدى معها) للتحول إلى أشكال أخرى أكثر تطورا، وهذه العناصر ترتفع أحيانا إلى حالة التصاعد الدرامي الذي يرتكز في الأساس على ما يسمى بالدراما الموسيقية ، فالكورال يتدخل في الأداء بصورة حيوية ونشطة لا تكرر المعنى ولا تعيد اللازمة ، وإنما يقوم هذا الكورال بتركيب أدائى للمقطع أو المقاطع المهمة لتنشأ تلك التفاعلات ، إذا جاز التعبير ، الدرامية التي تتحدث عنها . أو تسير هذه العناصر في اتجاه وجданى مفعم بالحنان والحزن والشجن ، وهو مستوى روحي آخر استطاع إمام عيسى بحرفية عالية أن يجمع بينه وبين المستوى السابق في مقطع واحد أحيانا وفي مقاطع متتالية في أحيانا أخرى مغيرا المقام الموسيقى ليتناثل المستمع من حالات الاستفراق ، أو بالأحرى

الفرق!..

- إيه رأيكم دام عزكم يا أنتيكات..

هذا الأداء الساخر المفعم بالروح المصرية البسيطة وبالعتاب واللوم والإدانة -هل اندثر ، واندثر معه مضمونه وأبعاده؟! أم يعتبر أحد أهم وسائل التعبير الفني -الفناني لخطاب المواطن المصري البسيط الموجه لكل أشكال القهر اليومي (ماديها وروحها) من جانب «تجار الخردة» الذين أصبحوا طواغيت مال وأصحابهم السماسرة الكبار على حد سواء مع «سينسبرى»، وتجار البانجو والسلاح؟.

- جاتك فضيحة

يا طبقة سطحية

وعاملة فضيحة

وجايبه العار.. قروانجيء.. وكتبنجيء .. وسمسارجيء .. وسمساردار.. الأمور واضحة تماماً على المستوى الشعري ، وبالنسبة لمن يستطيع القراءة أو يهواها من نسبة الـ ٢٠٪ الذين يمكنهم القراءة بشكل عام في مصر(هذا طبعاً إذا كانوا يقرأون جميعاً الشعر) ولكن الأداء الموسيقى -المستوى الساخر سيكون أوضاع تاماً إذا تمت إذاعة الأغنية على الملايين الحقيقي الذي يبلغ ٦٠ مليون نفر في حاجة ماسة إلى معرفة العلاقة بين «تجارة الخردة» في منتصف السبعينيات وطواغيت المال! في نهاية التسعينيات الذين اجتمعوا له عمل جمعية من أجل مواجهة أصحابهم «سينسبرى» وليس من أجل مساعدة هيء .. هيء .. مصرتهم.

لقد تغير، مع الأسف الزمن - ولكن هذه هي سنة الحياة والتتطور . وتغيرت المفاهيم ووجهات النظر، ولم يعد هناك إمكانية لتقسيم الناس كما كان يفعل ببرىخت في زمانه «نحن وهم». ومع ذلك فبرىخت كان على حق ، وهذا التقسيم صحيح إلى وقتنا هذا رغم ادعاءات التواصل بين الآنا والآخر محلياً وعالمياً والذي تم مسخ المفهوم الاجتماعي الحقيقي له- أى للتواصل- وطممس المفهوى الاجتماعي له بدعوى انتهاء عصر الايديولوجيا!.

جرّشـكـل

لابد أننى شيوعية

غادة فبيـل

يفعلون كل ما يجعلهم يقولون عنك شيوعي أو شيوعية.
أنت تمشي . لاترجم أحداً بالغريب . لاتزيد دم أحد حتى وإن عبرت عن
رغبتك المطمورة في قتل أعدائك الشخصيين والأشرار في هذا العالم من
الإسرائيـلـيـبـين والصـربـ ، أو غيرـهـ من مـرـتكـبـيـ المـذـابـحـ وـالـفـظـائـعـ ، لكنـكـ
تـعـرـفـ أـنـكـ لـوـ أـتـيـحـتـ لـكـ الفـرـصـةـ لـنـ تـقـتـلـ أحدـاـ . تـمـشـيـ وـمـلـءـ خـلـاـيـاـكـ قـنـاعـاتـكـ
بـأـنـ لـأـحـدـ مـنـ حـقـهـ قـتـلـ أـحـدـ أـوـ اـغـتـصـابـهـ أـوـ الـعـمـلـ عـلـىـ تـهـديـمـهـ . وـلـأـحـدـ مـهـماـ
تـعـرـضـ أـنـتـ لـلـخـدـيـعـةـ وـالـخـيـانـةـ . يـسـتـحـقـ تـلـكـ القـبـانـجـ بـمـنـ فـيـهـمـ أـنـتـ . لـأـحـدـ
مـنـ حـقـهـ أـنـ يـصـادـرـ رـأـيـاـ وـلـوـ كـانـ سـبـابـاـ فـيـ دـيـنـكـ يـغـضـبـكـ وـلـاحـتـىـ مـنـ يـسـبـ
أـهـلـيـ . لـكـ رـبـماـ لـوـ أـحـدـ قـتـلـ أـحـدـ مـنـ أـهـلـيـ أـفـكـرـ فـيـ الـانتـقامـ .. رـبـماـ . شـخـصـ
مـاـيـكـتـبـ مـقـالـاـ يـحـاسـبـ عـلـيـهـ الـقـانـونـ فـيـ أـيـةـ دـوـلـةـ مـنـ دـوـلـ الـعـالـمـ . يـدـعـوـ لـقـتـلـ
أـنـاسـ سـمـاـهـمـ وـقـدـمـ عـنـاوـيـنـهـمـ وـأـرـقـامـ هـوـافـهـمـ وـسـبـ كـلـ مـنـ فـيـ الدـوـلـةـ . هـوـ
الـمـؤـمـنـ . وـحـدهـ كـفـرـ نـصـفـ الـجـمـعـ فـيـ أـقـلـ مـنـ سـاعـةـ جـلـسـ يـكـتـبـ فـيـهاـ مـقـالـاـ .
فـمـاـذـ يـحـدـثـ؟

يدـعـوـ المـفـتـىـ وـرـئـيـسـ الـوزـارـةـ إـلـىـ مـشـارـكـتـهـ فـيـ الـوقـوفـ عـلـىـ مـصـطـبةـ
إـيمـانـهـ مـطـالـبـاـ بـتـحـوـيـلـ مـنـ كـفـرـهـمـ إـلـىـ مـحاـكـمـةـ عـسـكـرـيـةـ . وـهـوـ فـيـ هـذـاـ يـرـهـبـ

من يستعديهما تحرشاً وإعلاناً (لنا) وإشهاداً (عليهما) إذ يدعوهما إلى الاستقالة بولولة رخيصة إن لم يفعل ما يريد شخصه الغيور على الدين وـ
القيم أن يفعله.
فماذا يحدث؟

نرى المشتومين ، المهددين في حياتهم ، المُكفرِين (بفتح الفاء) في عقيدتهم .. هم الذين يتم تحويلهم إلى نيابة أمن الدولة، بدلاً من أن تختصم الدولة مع الداعمين إلى قتل الناس أو أن توفر الحراسة للمهددة دماؤهم بعد صدور فتاوى وأحكام (هناك برنامج اذاعي أو تليفزيوني - لا ذكر - له هذا الاسم) المعصومين في حق عقائدهم . وفقط لأن المشتومين كانوا يقومون بوظيفتهم وفق رؤيتهم وفي أماكن عملهم.

ليس مجرد تفويض إلهي أن يستمر المرضى وغير المتحققين والراغبين في صور وأحاديث تليفيزيونية في التحرك النشط باتجاه تخريب وتهدم كل من يخالف أفكارهم . ولا أحد من يمكن أن يسعدها إغلاق جريدة أو تجميد نشاط حزب ما . وقلتها منذ سنوات في إجابة على سؤال من الملحق الثقافي البريطاني أثناء إجراء مقابلة قبل الامتحان للتقدم إلى منحة دراسية في بلده . تطرقنا إلى بعض الجرائد مثل "اللواء الإسلامي" وغيرها . وماقلته هو ماقوله الآن . لامنعوا ولا حجب ولا مصادرة لاي شيء أو فكر يختلف معى أو يعيي فيما أؤمن به .

وقلتها قبل وبعد قراءة رواية "آيات شيطانية" للروائي سلمان رشدي ، التي أذنتني شخصياً في مشاعرى الدينية . فما بالنا وهناك فتاوى طالبت فى وقت سابق رشدى ويريدون الآن الفتى بناس ، وسموهم هم وأهلهم بالكفر والفحور؟ ..

لماذا تروع الكلمات ؟ حزننا تزيد أن تدفن نفسها أو قاتاً .
أنا ، التي لا أملك إلا الكلمة، ولا أقدس إلاها عندما تكون نزيهة . لا أريد أن

نکف عن أن أؤمن بأن كل ما قد يبقى لو تزعزع إيمانى بعدم استحقاق صاحبها للقتل مالم تكن نزية هو أن أغادر بلدى.

صممت أن لاكتب عن "وليمة لأعشاب البحر" إلا بعد قراءتها . وفعلت . وهذا رغم إيمانى أننى ، مهما قرأت ، لن أخرج فى مظاهره أطلب دم إنسان ولا يمكن - مهما وجدت فى الكتاب - أن يتبدل هذا . ولايمكن كذلك أن أؤمن أنه ليس من حق غيرى أن يقرأها مثلاً قرأتها .

المهاتما غاندى كان يقول "الله هو الديمocrati الأعظم لأنه أعطانا حرية أن نؤمن به أو لا نؤمن ". "بابو" الهندوسى كان يصدق هذا ويصلى كصوفى بذراً نفسه للبحث عن الحقيقة مع المسلم ومع المسيحى بعيداً عن أهداف السياسة . ولكنه - كما كان يقول - لم يجد نفسه إلا في هندوسيته .

نفضت جريدى نشر المقال القصير الذى كتبته بعنوان "نحن نرفض الوصاية" و كنت واثقة من امتدال لهجتها ثقتي المسبقة فى عدم النشر . منعه شخص لطالما طالبنا سراً بالكتابة عن شخص تربطه به علاقات استفاداته ولacle لـه بالابداع حيث يتحدث عن عظمة الخمار وروائع حالة الإيمان وغير هذا .

ولطالما ..

نحن لستا فقط مهددين فى إبداعنا وخيانتنا - مثل حيدر حيدر - بل متنوعون وممنوعات من ممارسة مهنتنا . ونعاقب بحرماننا من نشر رأينا فى صحفنا التى نتقاضى منها أجورنا . وهم يستحلون أن يعطوك أجراً على عمل أنت قمت به ، وهم صادرون . وفوق هذا حجبوا رأيك وكتابتك عن غيرهم ليصيّبك وهن اللاجدوى أو لتبعد عن مكان آخر يتحمل رأيك .. فإن تصادف أنه جريدة يقولون عنها "شبوغية" فأنت لا شك شبوغى .

أنا لم أدخل فى قلب أحد لأعرف من المؤمن ومن غير المؤمن . ثم أنى لا أريد أن أدخل فى قلب أحد فيما يتعلق بهذا أمر . أنا أريد للاثنين، المؤمن

وغيره، أن يتكلما ويكتبا وينشرا ما يكتبه وأن يقرأ الجميع، وأن لا يعرض ديواني الجديد - الذى بدأت أخط قصائده - على الأزهر ليقرر ما إذا كان صالحاً للنشر . ولا أريد للإذن أن يقرر لي ماؤقرأه ولا للفقهاء الذين مازالت محاكمتنا تأخذ بشهاداتهم - على لانسانية وعدم منطقية أو إسلامية الكثير من نتائج اجتهاداتهم - أن يحكموا حياتي.

ونعم عندما زرت لبنان وقامت هوجة ضد رئيس الوزراء رفيق الحريري بسبب مشروع تقدم به بقرار الزواج المدنى (وهو واقع فى لبنان إذ تتم العديد من الزيجات بين الطوائف المختلفة فى قبرص كما حكى لي، ثم توثق فى لبنان) كنت مع الزواج المدنى بدلاً من الزواج الذى قد لا يكون دينياً فى شئ وبالنال اختفت مع أبي عند المناقشة واختلفت مع صاحبة محل عجوز مسيحية واتفقت مع ابنتها السيدة الناضجة، وهذا رغم أننى لا أافق لنفسى شيئاً على الزواج العرفى لكنى لأنظر بأية إدانة أو تحفيز إلى ممارسيه ولا أتخيل أن أقر منعه إطلاقاً بل العكس. واختلفت - أيضاً - مع أبي.

ونعم، أستطيع أن أجلس مع من يشرب الخمور بتنوعها ولاشرب، ولا أحب أن يفترض فى أحد أننى أستكين لتخلّف موروث إن لم أشرب.

نعم، لا أقبل أن أرتدى ما يوه بيكينى لكنى أرتدى المایوه، لأننى أحب الماء وأحب أن أحسه بجسمى . ولا أحب أن ينظر إلى جسمى الغريباء . لا أستطيع - نفسياً - أن أرتدى الميكروجيوب الذى ارتديته طوال مراهقتنى الأولى أو أن أسمع لن أحباب بتقبيلى أمام الناس لكنى لأنراه إلا بينهم ولهذا يروننى . وعندما كنت أرى المحبين يتعانقون ويطبلون العناق والتقبيل فى الخارج كنت أثير وجهى حرجاً كطفلة أول الأمر ثم بعد أن كبرت كنت قد أمنت أن من الوقاحة أن انظر فأن أظل أراقبهم ليس من حقى على الاطلاق.

ونعم لا أقبل أن يفرض أحد على شيئاً. قد أخرج فى مظاهره لطلاب بحق طالبة فى ارتداء حجاب أو خمار أو غيره مع يقينى أنها لاتفعل المثل لو

اعتقدت لسبب يرتبط بقناعاتي أو كتابتي أو ممارستي لحربي الشخصية كما أراها وأحددها. كيف لا أحلم لمصر بنظام تنفصل فيه السياسة عن الدين فلا يطالب أحد برأس أحد لأنه أسود أو لأنه مسيحي أو لأنه ملحد أو حتى لأنه شاذ جنسياً.

لكنني أطالب فقط برأس من يتخابر مع جهة أجنبية ضد بلدي ويقبض ثمن ذلك.

أريد دولة لا ألاحظ فيها ذلك الدفء المفاجئ والابتسامات بين غرباء يرتكبون الميكروباص عندما ترى كل واحدة وشم الصليب على معصم الأخرى مثلما رأيت هذا الصباح وأصابني حزن وغمة لأننا نبتسم لبعضنا فقط إذا كنا من نفس الدين.

أما تكفيهم كل نازلات المؤمنين بالمجتمع المدني في كل المجالات؟ . ففي الفن حيث سمعت بعض النحاتين يقولون لي أنهم توقفوا عن النحت لسنوات لشكهم أن يكون ذلك حراماً . وخصوصاً أجيال طلاب الفنون الجميلة لتجريم وجود "موديل" إنساني أمامهم وأمامهن والتعرض للممثلات في شرفهن لأنهن يفعلن تلك الأشياء على الشاشة فكيف ولماذا لانصدق أنهن يفعلنها وراء الشاشة؟ .

دوماً من يطالب بالعلمانية يتكلم بصوت أجبه على الخفوت ومن موقف دفاعي لصق الحائط الذي يريدون أن يشقوه ليدخلوه فيه ويحصلوه عليه وعلى أفكاره .

هم عازمون على مواصلة جهادهم حتى الموت تقليلاً وتذبيحاً لو تركوا . ونحن وهم نعرف المقصود به "هم" - هم كل من يرى في القتل حلاً للاختلاف ليستطيع أن يسجد سجدة ثم ينام لنيله مطمئناً لاستحقاقه الجنة . هم الذين يمنعون النساء في إيران من الخروج دون حجاب أو يمنعونهن من الخروج أصلاً ولو للتعليم في أفغانستان والذين يمنعونهن من السفر ولو للعلاج باسم

الزواج والشرع ،وهم قتلة فرج فوده وقتل نصر حامد أبو زيد لأن مافعلوه به ومازأدوا فعله واستوجب حراسته في سيارات مصفحة تنقله إلى الجامعة لمناقشة رسائل طلبته هو قتل، وهم من جعلوا شخصاً يرشق خنجرأ في عنق نجيب محفوظ، وهن اللواتي كدن يسلحن بعض الباحثات من على المنصة في مؤتمر مائة على كتاب قاسم أمين تحرير المرأة العربية في المجلس الأعلى للثقافة وهم من يديرون وجوههم من إثم رؤيتنا بجوارهم - بجوار طهيرهم الذي لا يريدون له تلويثاً في المصاعد إذا كانوا جيراانا لنا وليس مجرد غض النظر والعياء الحايد كما فأخذس حتى لتشعر أذنك بلا ثياب .. ولكن لا أريد أن يجعلوني أتشبه بهم وأخذس وأفترض .. بالفعل أحتاج لمقاومة ذلك.

كل هذا وألوف من أطفال الشوارع يشحذون وتنتهي طفولتهم عندنا ويوجد في السجون الإسرائيلي نحو ٢٠٠ معتقل مصرى منذ عامين خلاف ألف وستمائة معتقل فلسطيني وعربي في سجون إسرائيل غير معروف عنهم شيئاً وغير مسموح لأية هيئة دولية بالوصول إليهم ولا معروف متى سيخرجن ولا هم يعلمون باعتقالهم ول الجنسياتهم مغلقة. ثم يتظاهر البعض في بلد يحرم التظاهر حتى في صورته السلمية ليس للمطالبة باطلاق سراح المعتقلين العرب في تلك السجون ولا للمزيد من الحرية أو حقوقهم الأساسية . لا . إنهم يتظاهرون طلباً لدماء مواطنين يحزنهم كل ذلك التردى والمتاجرات والقمع والحرمان بكل صنوفه ويزيلهم - بشكل خاص - النفاق.

ولأنهم وضعوا تعريفاً للشيوعى حتى وإن لم يكن عضواً في حزب أو خلية تنطبق معظم شروطه على أحد نفسى مستوفاة للكثير مما أتمسك وأفخر به كإنسانة ، فلا بد - بدون أن أدرى - أن أكون شيوعية.

حُرّ شَكْلٌ

سر الخسارة

ماجد یوسف

* ما الذي جرى لنا أيها السادة؟.. ما هذا الذي يتربى في حياتنا كل يوم من حوادث ووقائع وبلاوى زرقا، مذهلة فى بشاعتها .. ولم يعد كافيا - بالمرة- إحالتها إلى الشماعة المصرية التقليدية التى ناءت بآلامها والمسماة (الإهمال).. فترك صاحب الأجهزة الإشعاعية لجزء منشئ ضائع من جهازه (بفرض صدقه) دون الإبلاغ المسئول عنه فى حينه .. ليس مجرد إهمال ، وترك صاحب مصنع الاسكندرية الذى أصيب مصنوعه (المكون من ستة أدوار) بخريق سابق، ثال من متانته وأساساته دون ترميمه وتدعميه ، بحيث إنه انهار فورا فوق رؤوس أبطال الدفاع المدنى الذين جاءوا لإنقاذ الناس والمصنع عند حريقه الثانى .. ليس مجرد إهمال ، والنادي .. أو مصالحة الألعاب ، أو ما شابه ، فى الفندق الفلانى بالغردقة الذى انهار سقفه (لات لم يبن على المواصفات السليمة أصلا) فوق رأس بنت بريئة ، فقضى على حياتها فى الحال .. ليس مجرد إهمال ، ومحطات الترام -المجددة حديثا! -التي انهارت على رؤوس الناس فى الاسكندرية، وقتلت من قتلت من الأبرباء لغش المقاول ، وببيع المهندس المختص لضميره ، من أجل حفنة جنيهات .. ليس مجرد إهمال ، والolidan اللذان دفعا حياتهما لتكهرب حمام السباحة بسبب عمال بلهاء! وإدارة نادى نادى نادى على ودانياها ، يعلن رئيسها بمنتهى الوجهة ، أنه لا علم له

بأى لحامات أو صيانت تجرى فى النادى!.. ليس مجرد إهمال ، وعدم وجود وسائل إسعاف أولية للحوادث فى النادى نفسه (وربما فى غيره من النوادى).. ليس مجرد إهمال ، ثم محاولة إنقاذ أحد الولدين الذى كان به بقية من حياة . واللف على مستشفيات المنطقة (الاستثمارية) ورفضها (جميعا) استقبال الولد، والتعجيز بإنقاذه (أولا) (قبل دفع الرسوم المقررة) حتى مات الولد فى جولة (الفصال) الحقيرة هذه .. إلخ ، كل هذا ليس مجرد (إهمال) يا سادة! .. وإنما هو ، وبكل المعانى ، درجة عالية ، وممتازة ، ومتفردة من (الفسدة) التى أصبحت طابعا عاما ، وملحمة يكاد يكون مصريا بحتا ، ووطنيا محضا للأسف الشديد!.

وفي كل هذه الحالات ، وهذه ليست مصادفة ، يغيب القانون تماما عن الموضوع.. يغيب القانون ، والتفتيش ، والمتابعة الحكومية - عن وعلى مستخدمي الأجهزة المشعة ، والمنوط بهم - هؤلاء المفتشون - التأكد من سلامة استخدام هذه الوسائل الخطرة والتي لابد منها فى نفس الوقت ، وتأمينها لضمان أمن وسلامة المواطنين ، ومن المفروض ألا يسمح أصلا (للشركات من هذا النوع) بممارسة أعمالهم باستخدام هذه الوسائل ، إلا بعد التأكيد التام من قيامها بإجراءات أمنية ، وإجراءات سلامة معينة ودقيقة وواجبة ، وإلا منعت وحرمت من الترخيص لها بذلك ، ما لم تستوف هذه الإجراءات!.

وأين القانون والرقابة والمتابعة من صاحب مصنع ، أصيب مصنعه بحريق سابق .. كيف يسمح له بمواصلة العمل وحركة العمال فى مصنعه (المكون من ستة طوابق) دون التأكيد (القانونى والهندسى والفنى) من صلاحية المكان والبنى وسلامته بعد الحريق الأول! .. وكيف لا تعانى لجنة هندسية وفنية مختصة (وغير مرتبطة) ، ولو أن هذا من الصعوبة بمكان! لتحديد اللازم له ليشتمل على الحد الأدنى من الأمان والقوة والصلاحية لدوران دولاب العمل فى المصنع من جديد؟ .. وطبعا ، لأن مثل

هذا سيكلف صاحب المصنع قليلاً أو كثيراً، فمن المفهوم أنه لن يقوم به طواعية طبعاً، إذا ترك لضميره فحسب (والضمائر في بلدنا الحر الأمن ميّة في العادة، خصوصاً أمام شهوات المال ومغريات اكتنازه والفن به على أمن الآخرين!)، وإلا لن يمنع الترخيص بإعاقة التشغيل والإنتاج، وساعتها كان سيهرع لعمل اللازم لأننا (نحاف مانختشيش) كما يقول المثل!

وكل مثل ذلك عن هذه المستشفيات الاستثمارية / السياحية / الفندقية / الشرهة / البشرة .. التي تشرى من دماء المصريين، وأمراهم، وأدواتهم، ولا تعرف الرحمة، ولا الإنسانية إليها سبيلاً.. لابد أن تلزم وزارة الصحة هذه (السلخانات) (بقوة القانون) بمساعدة الناس وإنقاذهما إذ لزم الأمر ودعت الضرورة .. وإلا منعت عنها تصاريح العمل والممارسة .. تلزمهم باستقبال الحالات الحرجة، وحالات الطوارئ، فوراً، وبلا أي تردد ولا تسويق، ما دامت الدقائق في مثل هذه الحالات تفصل بين الحياة والموت، أولاً .. إنقاذ الحالة .. هذا هو «الطب» أو الأصل في الطب، وهذا هو قسم أبقراط الذي يقسم هؤلاء الأطباء الذين تحولوا -في شرائح لا يأس بها منهم- إلى تجار، ورجال أعمال، وجامعي ثروات بأى طريقة، وبتوع بيزنس! .. أين الضمير؟ .. وأين هذا القسم الإبقراطي؟ .. الذي يسمع للملائكة الرحمة!! .. بأن يتركوا طفلاً يموت! وفي مقدورهم إنقاذه! وجاء أهله على (ملاوشهم) بلا تقدّم، وبلا استعداد مادي كاف لهؤلاء الزبانية ولا أقول الملائكة، وفي رحلة تنقل الفتى المسكين من مستشفى استثماري جشع، يفقد الطفل البرئ حياته هدراً وطمعاً ونذالة وخسناً! ما هذه الخسنة يا وزير الصحة؟ .. وما هذه الخسنة يا ناس؟ .. لماذا تبلدنا إلى هذا الحد؟ .. لماذا فقدنا إنسانيتنا إلى هذه الدرجة؟ .. ألا يوجد شهم واحد .. طبيب .. أو معرض .. أو ممرضة .. يتقدم لينقذ حياة الطفل رغم أنف صاحب المستشفى اللعين .. ويتنصر لأدميته وإنسانيته ..

بدلاً من أن يقف ضعيفاً ، سلبياً متفرجاً ، خائفاً على القرشين اللذين يباخدهم ، ويتتحمل بدون أن يهتز له جفن - أن يشاهد طفلاً يموت أمام عينيه ولا يحرك ساكناً ، ومن الممكن جداً - في هذا البلد الذي يعاشر الإهمال ليلٌ تهار - أن يكون ابنه ، أو ابنته في نفس الموقف ، في أي وقت ، وفي كل وقت ، والأنكى أن الطفل الشهيد هو ابن لأحد الأطباء؟.

جاء من نادي الأطباء ، يعني حتى حق الزمالـة في المهنة لم يشعـف له ، ولم يفلـح في إنقاذـه ! .. ما هـذا ؟ .. أين نـحن ؟ .. وفي أي زـمن نـعيش ؟ .. وفي أي عـصر نـحيا ؟ .. ما هـذه الـدرجة الفـائقـة من (الـخـسـة) والنـذـالـة ، والتـي أصـبـحـنا نـتـارـسـها عـبـانـا جـهـارـا .. ليـلـانـهـارـا بلاـحـيـاءـ ولاـخـجلـ .. وكلـ هـذـا منـ أـجـلـ الفـلوـسـ ..

ملعون أبو الفـلوـسـ التـي تـقـتـلـ الـحـيـاءـ ، والتـي تـزـهـقـ الشـهـامـةـ ، والتـي تـدـمـرـ الـإـنـسـانـيـةـ وـالتـي تـصـرـعـ الطـفـولـةـ الـبـرـيـئـةـ ، والتـي تـحـولـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ جـمـلةـ أـرـقـامـ صـمـاءـ ، وـتشـيـنـهـ فـيـ مـجـرـدـ رـصـيدـ فـيـ الـبـنـكـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـتـفـعـ وـيـرـتفـعـ عـلـىـ جـثـثـ الـأـطـفـالـ ، وـأـجـسـادـ النـاسـ ، وـمـاتـسـيـ الـبـشـرـ ، وـأـمـراضـ الـشـعـبـ ، وـأـلـامـ الـأـمـةـ .. هلـ هـؤـلـاءـ هـمـ مـلـائـكـةـ الرـحـمـةـ .. أـمـ زـبـانـيـةـ (الـلـحـمـةـ) الـذـيـنـ تـحـولـ الـبـشـرـ فـيـ أـعـيـنـهـمـ إـلـىـ (بـضـاعـةـ) لـلـكـسـبـ الـفـاحـشـ ، وـسـلـعـةـ ، لـلـثـرـاءـ الـغـاشـمـ .. لـاـ تـهـزـهـمـ أـنـفـاسـ طـفـلـ يـحـتـضـرـ ، وـلـاـ تـدـفـعـهـ بـصـرـخـاتـ أـمـ مـكـلـوـمـةـ عـلـىـ صـفـيرـهـ الـذـيـ يـلـفـظـ أـنـفـاسـهـ ..

ليـفـتـحـ أـحـدـهـمـ .. وـبـلـاـ تـفـكـيرـ .. غـرـفـةـ الـعـمـليـاتـ لـاـنـقـاذـ ظـفـلـ بـرـئـ بـأـيـ شـمـنـ .. حـتـىـ لوـ كـانـ الثـمـنـ فـقـدـهـ لـوـظـيفـتـهـ .. أـوـ إـغـضـابـهـ لـمـتـوـحـشـ صـاحـبـ الـمـسـتـشـفـىـ .. بلـ يـتـرـكـهـ يـمـوتـ تـحـتـ سـمـعـهـ وـبـصـرـهـ بـبـلـادـ وـتـحـجـرـ وـجـمـودـ وـصـخـرـةـ لـاـ تـعـرـفـهـ الـحـيـوانـاتـ .. بـبـلـاشـ وـبـلـاـيـ ثـمـنـ .. أـيـهـاـ الـأـنـذـالـ .. السـفـلـةـ .. الـإـخـسـاءـ .. خـسـنـتـمـ جـمـيـعـاـ .. وـسـيـاتـيـ الـيـوـمـ الـذـيـ تـدـفـعـونـ فـيـهـ ثـمـنـ هـذـهـ الـخـسـةـ كـلـكـمـ .. أـنـتـمـ الـذـيـنـ قـمـتـصـونـ دـمـاءـ هـذـاـ الشـعـبـ .. وـتـثـرـوـنـ عـلـىـ حـسـابـهـ ، وـتـعـيـشـونـ فـيـ تـرـابـهـ

. وتكبرون برحابته وبين ظهرانيه .. وتتورمون بدماسه ، وتنتفخون
بأنفاسه التي تتسببون فيها بلحومكم الفاسدة ، وأغذيتكم الملوثة، ونفياي لكم
القدرة التي تدفنوها في أرضه وتقبضون الثمن الدين ، وببيئته التي
تلوثونها.. وهرموناتكم التي تحقنون بها غذاءه وخضرواته لتحققوا المكاسب
البهائة في وقت أسرع .. ثم في النهاية تستكثرون عليه أن تنفذوا طفلاً من
أطفاله في لحظة حرج .. كان ثمن التردد فيها ، حياة الطفل البريء! ..
ستدفعون الثمن أنها القتلة، وما دام القانون الملزم والمنظم لكل ذلك غائباً ،
فماذا نملك إلا أن نقول حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله في المهندس
الغشاش الذي بني السقف المفشوش الذي قتل البنت البريئة في الغرفة ..
ولم يتتابع - فنياً - من قبل لجنة مختصة، وللمقاول العرامي ومهندسه الأفacaق
الذى بني محطات الترام التي سقطت فوق رؤوس الناس فى الاسكندرية ،
ورئيس النادى (المهمل) والعمال الجهلة البلياء الذين يبدون أسلاك كهرباء فى
وقت يتعجب فيه حمام السباحة بالأطفال ولو زارة الصحة التي ترك ما فيها
المستشفيات الخاصة ترتع فى مجتمعنا ، وتكتسب من أجسادنا ، وتشرى من
أمراضنا بفحش وجشع ، وتبخل علينا فى لحظة خاصة جداً تفرق بين الحياة
والموت ، بمبادرة لإنقاذ طفل ، ولو حتى على سبيل (أعمل الخير وارمي
البحر) أو على سبيل الذكرة عن نفسها ومكاسبها .. هل رخصت الحياة عندنا
إلى هذا الحد .. وإلى هذه الدرجة من الخسارة والتذلة والتردى الخلقي البشع
.. وهو ما يدفعنا إلى طرح السؤال / اللغو الذى لا إجابة واضحة له (فيما
أظن) .. ما السر فى استثناء الخسارة فى مجتمعنا المصرى إلى هذا الحد!؟
ما سر الخسارة ياناس؟

الرباط والمهرجان والشيخ إمام

نورا أمين

لا أعرف على وجه التحديد كيف سافرت أنا تحديداً إلى المغرب لحضور مهرجان الرباط الدولي، والمشاركة في ندوة ينظمها اتحاد كتاب المغرب حول «المرأة والكتاب والمجتمع»، لا أعرف كيف أنهيت إجراءات السفر في زمن جهني بعده أن كنت قد أدركت إستحالة الوصول في الوقت المحدد، بدت لي رحلة المغرب رحلة مدهشة وغير متوقعة رحلة حملت في جعبتها مفاجآت وتجارب على عكس رحلات نخطط لها وننتظرها لكننا نعود فارغين الواهض منها، كانت المغرب هي الرحلة البريئية من الترتيب والتنظيم الذهني، الرحلة إلى مدينة تفتح لك ذراعيها وتمنحك دون أن تطلب وتقرب إليك، وتقربك من نفسك ومن وطنك أنت يا من رأيتها بعيدة وغائمة إن لم تكون غير مثيرة..

في شهر أبريل الماضي تعرفت لأول مرة على المغرب الثقافي من خلال ملتقى الرواية المصرية- المغربي الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة، حصلت على إصدارات أدبية ونقدية، وسمعت مداخلات وشهادات من أدباء ونقاد مغاربة، وشاركتهم في مائدة مستديرة حول رواية الشباب هنا وهناك وتبادلنا الآراء والحوارات مع بعض منهم. كانت هذه هي معرفتي الأولى بالمغرب، سبقتها انطباعات من ثيمة حول سفريات البعض، وكيف أن المغرب غارق في الطابع الغربي، وكيف أن نساءه يرتدبن ما يحلو لهن

ويتحدى الفرنسي كأنهن خلعن «برقع الحياة» إلى جانب مشاهدات سينمائية كانت تركز على المغرب السياسي، على مراكش وطنجة، فتصورت إنك أينما ذهبت سوف تجد ساحات بيضاء وحمامات يرفف حولك، وبيوتاً بيضاء صغيرة، وفتيات يشبهن أيطال الأفلام في سراويل بيضاء هفافة وبشرة سمراء لامعة وأنوف دقيقة. وبما أنني لم أجده أثراً لتلك الانطباعات لدى أصدقائي المغاربة في ملتقى الرواية ولا في قراءاتهم، فقد قررت أن ألقى بكل الأقاويل وراء ظهرى، وأكتشف الأشياء بنفسى، فعرفت أنه ليس هناك المغرب واحد، بل هناك عدة «مغرب» متباينة معًا سوياً، كأنها تشكل قارة صغيرة تحوى تعددات وتنوعات فى الأصول والثقافة واللهم والتقاليد والعادات الاجتماعية، وبالتالي فى أسلوب الحياة والمعمار ونمط الملبس والمأكل، فى المغرب هناك أطلس الجبل بالقمم والسفوح، حيث الحياة الجبلية والتجمعات الصغيرة والقبائل الصلبة التى تحمل حياة السخونة فى الصيف والثلوج فى الشتاء، وهناك المغرب الساحلى الذى يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلنطي، هناك المغرب المتأثر بأسپانيا المواجهة له، وبجل طارق وهناك المغرب المتأثر بالاحتلال الفرنسي، هناك المغرب شبه الدولى مثلما الحال فى طنجة، وهناك المغرب التراثى، وهناك المغرب القرى والبدوى حيث الصحراء تحتل مساحات شاسعة مثلما تحتل الخضراء مساحات شاسعة، ويسود رعى الغنم والماشية، وهناك المغرب العصرى فى الدار البيضاء حيث الإيقاع اللاهث للمدينة الغربية.

وهناك المغرب الثقافى الذى عشت فى داخله أسبوعين هذه المرة، فوجدت رحباً وخصباً يتسع لاحتواء كل تلك «المغارب»، بل لاحتواء «المشارق» أيضاً أو ثقافات الدول العربية الأخرى، وأولها مصر التى كدت أشعر أن عشاقها المغاربة قد صنعوا منها وطننا مصيراً ودمجوا فى المغرب، ليس فحسب بسبب العلاقات المصرية المغربية الفعالة على كل المستويات، السياسية والثقافية والاجتماعية، وليس فحسب بسبب التأثير الأسطورى للفن البغتاني والسينمائى تحديداً، حيث يحفظ المغاربة عن ظهر قلب مقاطع من الأفلام والأغانيات المصرية التى شكلت وعيهم وقربتهم إلى اللهجة المصرية

وجعلت الجميع في الشارع يتعامل مع المصرى كأنه صيف عائلى يجب إكرامه بطريقة خاصة ، بل بسبب ذلك المجهود الذى قام به مثقفو المغرب للتقريب المجتمع المصرى للقارئ سواء من خلال نصوص أدبية وروائية (على رأسها رواية محمد برادة مثل صيف لن يتكرر) أم من خلال نقد الأعمال المصرية ، والنشر لمبدعين مصرىين مثل سعيد الكفروى الذى شارك فى المهرجان ، فى ندوة حول (القصة القصيرة فى العالم العربى: أسئلة الكتابة والتتجربة) وتوزيع أعمالهم الصادرة فى مصر أو فى أقطار عربية أخرى ، وهو مجهود لا يستهان به إذ أن حجم الإقبال على القراءة وشراء الكتب كبير فى المغرب ، وهناك إحساس عام بحب الكتب التى لم يخفت بريقها بسبب وسائل الإعلام الأخرى ، أو السينما والفيديو ، كما هو الحال فى مصر.

يجسد مهرجان الرباط الدولى إذن طبيعة المغرب ، فهو نموذج مصغر للثقافات المغرب وتعدداتها وفنونها المختلفة ، لكنه لا يكتفى بذلك وحسب ، بل يسعى إلى طموح أكبر فى تجسيد التعددية وال الحوار والتلاقي باستضافته لدول أخرى كثيرة من الوطن العربى ، وشئى بقاع العالم ، مؤكدا أن مبدأ التعددية والدمج ينبغى الوفاء له بالافتتاح على تعدديات أخرى وطبائع مغايرة ، فهكذا يبرهن على كونه بوتقة تتجمع فيها الخبرات والتجارب والأوطان ولو كانت متعاكسة الواقع على الخريطة . ولا يقنع المهرجان بذلك بل يصر على نوع آخر من التعددية يتمثل فى عدم الاختصار - المعتمد على مجال فنى أو ثقافي واحد يكمن هو محور فعاليات المهرجان ، وإنما فتح الأبواب لمشاركة كل الفنون والجالات الابداعية ، لكي تتحاور معاً . وتتكامل وتخصب بعضها ببعض ، وهناك الفنان (حيث شارك من مصر على الحجار مع بعض أعضاء فرقته الذين اندمجووا مع الفرقة الغربية ليقدموا حفلات ضخمة بقصر الشازى) ، والسينما (حيث كانت النجمة المصرية نبيلة عبيد ضيفة شرف المهرجان ، وعرضت فيلم « الآخر » قبل مؤتمر صحفى أقامته بمقر عرض الأفلام فى إطار المسابقة الدولية للفيلم الذى امتدت أسبوعاً للتنافس على جائزة الحسن الثانى ، من خلال أقسام روائية طويلة وقصيرة ، وتسجيلىة ، كما تم تكريم السينما السورية بعرض خمسة أفلام إلى جانب قسم بانوراما السينما المغربية وقسم نظرة على السينما النسائية ، وقسم « سينمدرسة »

للاطفال والشباب، وقسم الاعلام الذى صم فيلما للمخرج المصرى سمعي منسى، «لون البحر»، وفيلما لشحات صديق «سيمفونية الغائب»، والمسرح (الذى شاركت مصر فى عروضه بمسرحية «ذات الهمة»، إخراج عباس أحمد، وبطولة وفاء الحكيم وسامح الصريطي، إنتاج مسرح الغد، إلى جانب عروض من تونس والعراق وفلسطين والإمارات)، والفنون الشعبية، والرياضة (مسابقات فى كرة القدم والسلة والتايكوندو والكارate والجودو والتجديف والسباحة والتزلج على الماء وسباق القوارب)، والفنون التشكيلية والورش (معارض وحلقات عمل)، والأدب (حيث تولى اتحاد كتاب المغرب تنظيم حفلات توقيع وندوات أدبية وقراءات شعرية : الثقافة العربية والتغيرات الاجتماعية ، الفكر المغربي الحديث والانشقاقات الراهنة - وز من الشعر أمنز من الرواية ، المرأة والكتابة والمجتمع فى الوطن العربى).

زخر المهرجان بالحضور الجماهيرى الكبير، لا سيما فى حفلات المطربة ماجدة الرومى، وعائشة الوعد وشقيقها وعلى الحجار، وأكثر منهم مارسيل خليفة الذى أثبت تواصلاً واحتراماً هائلاً للجمهور جعل صفوف الشباب تنتظر طوال الليل حول قصر التازى لامتناء القاعة . وبذلك حفلات الغناء التراثى وتكرير عبد النبى الجرارى، وقد شارك من مصر فى حفلات الموسيقى حسن شرارة وإيناس عبد الدايم وإيمان مصطفى ونبال منيب . وكان الحضور الجماهيرى خارج سياق الفنان منحصرًا فى لقاء الشاعر الكبير محمود درويش الذى كرمته المهرجان، حيث قرأ قصيدة «جدارية»، وألقى بعض النقاد من البلاد العربية «أبحاثاً» حول قصائده ، وقدم اللقاء حسن نجمي الشاعر ورئيس اتحاد كتاب المغرب . ولا شك أن مهرجاناً بهذه الضخامة لا يمكن أن يتضطلع به إلا الحكومة والمؤسسات الكبيرة، حيث احتشدت مؤسسات مدينة الرباط وبذراعاتها مع الوزارات والمراکز الفنية والبنوك والقنادق والخطوط الملكية المغربية والمعاهد الموسيقية والمسرحية والجمعيات الثقافية ، لتمويل وتنظيم المهرجان . والمدهش أن المهرجان يقام سنوياً ، ويمتد لأسبوعين من ١٠ إلى ٢٤ يونيو ، كما أنه يمتد وينتخب كل دورة ، ليس فقط من خلال الفعاليات الرسمية وإنما من خلال حوار المشاركين وتعريفهم بعضهم إلى بعض . والحق يقال ، إننى لأول مرة أجلس إلى مائدة



يجتمع عليها قرابة عشرين مثقفاً ، يتحدث كل منهم بلهجة عربية مختلفة ، فكأنني وجدت نفسي في وسط جفراقيا مصفرة للوطن العربي وثقافته وأرائه المتضاربة المشاكسة والجميلة ، فهكذا أدركت موقعى أكثر ، عندما أدركت موقع الآخر وتشابهاتنا ، وأصبغت الخريطة كائنا حيا ، جماعياً ، متلوناً ، وأصبحت الثقافة ممارسة يومية تلقائية وتفاعلية .

بالرغم من أننى ما زلت لا أعرف على وجه التحديد كيف ذهبت إلى هناك أنا تحديداً ، إلا أننى التقيت بجزء من طفولتى فى جبال المغرب داخل سيارة وحيدة تدور وتنحرف فى مدارات أطلسية ، التقيت مرة أخرى بصوت الشیخ إمام فى ذکراه وكلمات أحمد فؤاد نجم ، فتذکرت حواریت كثيرة من طفولتى ومن حیاة بلدى ، كانت تکاد تنهى لولا أن أيقظتها المغارب وأعادتنى إلى هنا بقدر أكبر من الحنين ومن افتقاد معنى الوطن . ولعل هذه المفاجأة هي آخر ما كنت أتوقعه من رحلة لم أكن أتوقعها من الأساس ، مفاجأة أن تسترد قطعة منك فى بلد كنت تعتقد إنها لا يشبهك فى شيء .



الفن و الآلة الالكترونية

أشرف ابراهيم

الفن المفاهيمي أو «العلوم التصورى» أو «التصورية» أو «فن الفكرة Conceptual Art» هو مصطلح فنى ينسخ الصورة الحسية التى نراها لإحداث صورة ذهنية فى الإدراك، ومن المعروف أنه بدأ التمهيد لهذا النوع الفنى فى أعمال الفنان资料马塞尔杜尚 Duchamp، لكن المصطلح استقر فى الستينات على أساس أن العمل الفنى ليس منتجًا فيزيقياً بقدر ما هو مجموعة من أفكار ، ولعل أهم فنان أشاع هذا المصطلح هو الفنان الأمريكى جوزيف كوسوث Kosuth الذى عرض عمله الشهير «واحد وثلاثة كراس» عام ١٩٦٥.

هذا النوع من الأعمال يقوم فيه الفنان بترجمة فكرته باستخدام أى وسيط يراه مناسباً للتعبير عنها واختيار أى نوع من الخامات يخدم هذه الفكرة دون التقيد بالنوع الفنى التقليدى من تصوير أو حفر أو نحت ، ولقد تطور هذا الفن «فن الفكرة» خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين بشكل ملحوظ ومؤكّد إلا أنه غالباً ما يعبر عن فكر ومفاهيم الفنان نفسه على أساس أن العمل الفنى ليس منتجًا جمالياً بقدر ما هو منتج فكري مترجم تشكيلياً . ولقد كان لجماعة المحور التى تكونت فى الثمانينات من الفنانين أحمد نوار ، فرغلى عبد الحفيظ ، مصطفى الرزاوى ، عبد الرحمن النشار ، السبق فى أول العروض التى تمت فى مصر من هذا النوع فى

الثمانينات بالتحديد عام ١٩٨٠ بقاعة السلام أى نفس مكان مجمع الجزيرة للفنون الان كذلك، لا يجب أن ننسى اجهتادات الفنانة عفت ناجي والفنان منير كنعان في الثورة على سطح اللوحة والاطار، الان هناك مجموعة كبيرة من الفنانين الشبان الذين يمارسون هذا النوع الفنى منهم شابي الشوقياتى، منى مرزوق ، وائل شوقي ، أمينة منصور ، عماد أبو زيد ، رحاب الصادق ، عادل ثروت ، أيمن السمرى وأخرون .من هذا الجيل أيضا الفنان خالد حافظ والذي شهدت القاهرة مؤخرا واحدا من هذه العروض له بمراكز الجزيرة للفنون تحت عنوان « منتصف الطريق إلى البيت والآلهة الالكترونية ». تم رصد الفنان خالد حافظ على الساحة التشكيلية بمعرضه تحت عنوان « هلاوس مايو ١٩٨٧ ومنذ ذلك التاريخ تؤكد معارض الفنان طليعية ووعيه الفنى العميق.

في معرضنا هذا يناقش الفنان على محاور متعددة مجموعة من الأفكار الشائكة والمختلطة والمعقدة أيضا في آن واحد : حدود ما نعلم ، أسئلة بلا حدود - تتکاثر وألف سنة أخرى تمر ١- الحقيقة واللاحقيقة ٢- المقدس واللامقدس ٣- ما نعلم وما لا نعلم على حد قوله في النص المصاحب للعرض والذي يقسم فيه العرض إلى أربع جوائز.

حائط أول: آلهة الكترونية « كلنا قديس » المقدس والاستهلاكي وهو عبارة عن أربع مرايا في أربع أطر على هيئة الايقونة المصرية القديمة وفي قاعدة كل منها لوحة مفاتيح من تلك النوعية التي تستخدم في الكمبيوتر - مكتوب على يسار الداخل بيان صغير بالخطوات:

- قف أمام المرأة - إضغط أيها من المفاتيح - انظر أمامك في المرأة - مبروك قد أصبحت قديسا .. في الخلفية أربع دواير ذهبية متبدلة من السقف

وكانها حالات فمن يقف أمام المرأة يرى رأسه وقد توجت بهالة ذهبية.

حائط ثان: حلقة منتصف الطريق « خطوة المانيكان » المتحرك والثابت وهو عبارة عن أربع مانيكائنات بأطوال متفاوتة كالتي نراها في نوافذ

محلات الترزاية ، مغطاة هنا بصور أبيض وأسود ملصقة على الجسد المصمت ، على أماكن الرؤوس التي في العادة لا تكون موجودة . هناك هالات من نفس الالات في الحائط الأول والثاني كان مثبتة على قدم واحدة من المعدن وتناثر على الأرض مجموعة من الالات . الذهبية متراصة فوق بعضها بطريقة عشوائية .

حائط ثالث : منتصف الطريق إلى البيت « ابتلاء الأشياء » ماض يبتلع الحاضر نجد منقولات من مناضد وكراس وزجاجات وكتب ملصقة في الحائط الابيض جميع هذه الأشياء قص الفنان منها جزءاً وكان الحائط يبتلعها أو كان هذه المنقولات تخرج من الحائط .

حائط رابع : اليوم أنا قدس (اللوحة) الفراغ والمضمون . عبارة عن حائط فارغ طويلاً في جانبه الآيسر لوحة صغيرة . في النص المصاحب للعرض يقول الفنان خالد حافظ : « تدور فكرة العرض حول فكريتي المقدس والاستهلاكي ويختتم كل حائط بقضية صفرى من الفكرة . حائط أول المقدس والاستهلاكي (استدعاء الآلهة المفضل .. شراء لقب قدس للحظة) .

حائط ثان : الحركة والسكون . حائط ثالث : ابتلاء بعد زمني (الماضى) لبعد زمني آخر (الحاضر) . حائط رابع : الفراغ والمضمون . ولمناقشة العرض في ضوء كل هذا . بداية يتعامل الفنان مع الفراغ على اعتبار أنه أربع حوائط وهذا التقسيم وإن كان مكتوبأً بصورة جيدة في النص المصاحب للعرض في اعتقادى إلا أن الفنان لم يستخدم أرض وسقف القاعة بشكل جيد مع أن لدى الإنسان بصفة عامة ارتباط قوى بين السماء والقدسية في جميع الأديان حتى الأطفال يظنون أن الله يسكن السماء وعلى المستوى اللغوى العربى والتى تعبر عن طريقة ما فى التفكير المنطقى لدى هذه الشعوب نجد واضحاً أن كل ألفاظ وأفعال السمنو والرفعه والتزاهمة ترتبط بالعلو والسماء وكل ألفاظ وأفعال الوضاعة من الدنو والارض ربما فى

هذا الاستخدام الافقى إشارة إلى بعد الناس عن الله وفقدانهم للإيمان بأسباب السماء والدعاء بالسجود وفي هذا بعد ميتافيزيقى لمعامل الناس مع المقدس والاستهلاكى . فى الحافظ الأول هناك أربع مراريا داخل أربع أطر على هيئة الأيقونة المصرية القديمة غير مدهونة على لون الخشب وفي قاعدة كل منها لوحة مفاتيح كالتي تستخدم فى الكمبيوتر مقابل كل واحدة من المراريا هناك حالة إما مائلة إلى الأمام لتبدو على شكل بيضاوى فوق الرأس أو مستقيمة لتبدو على شكل دائرة . فالناظر فى المرأة الأولى ويضفط على أي مفتاح من لوحة المفاتيح ستكون لديه قناعة أن هناك تغيراً ما سيحدث وإنه عندما يرى الدائرة الذهبية تتوج رأسه سيصدق نفسه ويتحول إلى قديس ولكنه حين ينتقل إلى لوحة المفاتيح الثانية لن يجد المرأة ولا الهالة ولكنه سيظل قديساً لأنه فى الجو نفسه وما زال يمارس نفس الطقس وقد عمد الفنان إلى عدم تلوين الأطر الحبيطة بالمراريا لتتلون بسهولة فى مخيلة المشاهد دون حواجز من أي نوع كذلك عمد الفنان إلى كسر توقع المتلقى ليطابق الواقع - فى اعتقادى - فكثيراً ما ننتظر إلى أنفسنا فى المرأة صباها ونحن نحلق الذقن أو نربط أربطة العنق ونعتقد إننا قديسين نتيجة لتراتكمات وضفوط العمل والبيت والأولاد وما إلى ذلك يحلو لنا الاعتقاد بأننا قديسون وتنزل من بيوتنا على هذا الاعتقاد ومن بعض عبارى السبيل نقولنا دون دافع حقيقى إلا تحقيق هذه الفكرة ، ربما لنجاهظ على هذه الصورة المرسومة فى أذهاننا عن أنفسنا وحسب ، وكثيراً ما ننتخذ فى حياتنا قرارات ليس لها تبرير سوى إننا قديسون . الفنان خالد حافظ يضع هذه الصورة الكامنة داخل أنفسنا أمام أعيننا . كذلك فى الحافظ الثانى يتناول مسألة القدسية التى قد نخللها على مجرد مانيكان فى فاترينة فى الطريق ، إن المسألة ليست فى قداستنا نحن أنفسنا لأنفسنا بل ما نلقيه على بعض الأشياء ألسنا نقول فى أحاديثنا العادية مثلًا كوب الشاي صباحت مقدساً فى الحقيقة لا شيء مقدس بالفعل بل نحن الذين نقدس هذا ونحط هذا ونضع

حوله الحالات نزيته بها ونترجم ذلك.

ولعل الفنان يتساءل في سخرية حين كتب على أحد المانيكارات كلمة معمق Aseptized إلا أنه معمق فهو مقدس وله هالة مع أن الحالات ملقة بلا عدد وبإمكان أي واحد أن يشتري أي عدد من الحالات.

مسألة حائط الزمن ذلك الحائط الأبيض الذي تدخل أو تخرج منه المنقولات من كراس ومناضد وزجاجات وكتب اقتطع الفنان جزءاً منها للبيهام بفكرة الدخول والخروج هذه . وفي هذا يقول الفنان : «ترمز الحائط للماضي المستمر . يبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام لأنها غير معلومة لنا . تتصارع قوتان جانبية الماضي والجانبية المضادة للحاضر الذي يرفض انتهاء اللحظة والدخول في كنف الماضي «الحوائط البيضاء» . ويسمى الفنان هذا الحائط منتصف الطريق إلى البيت (ابتلاع الأشياء) . أعتقد أن الفنان في معالجة هذه القضية الكبرى التي دارت حولها معارك كثيرة في الفن والتاريخ وما زالت تدور كتبها بشكل جيد في النص المصاحب للعرض ولكنه لم يقنعني شخصياً بهذه الفكرة - ولو أنها وجهات نظر - ولكن أعتقد أنه لكونها فكرة ضمن أفكار العرض لم تحظ بالتركيز المطلوب وأنه كان من الممكن أن تكون فكرة عرض منفرد ، يصف الفنان الحوائط البيضاء بأنها ترمز إلى الماضي المستمر تبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام . الجدران من عصر الكهوف وهي تسير الإنسان يحفر ويرسم فيها ويسجل تاريخه أيضاً . أذكر ذات مرة وأنا أتحدث مع الفنان عن طفولته يقول إنه كان يرسم باللون الباستيل والطباشير على كل شيء الجدران في الشوارع والأبواب والترابيزات » والحيطان في المنزل . ربما ارتبط ماضي الفنان بالحيطان البيضاء من هذه الناحية . ولكن أعتقد أن تنفيذ الفكرة هي فكرة حركة وانتقال من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى الماضي من المقدس إلى الاستهلاكي وبالعكس أيضاً لم يكن بشكل كاف . كذلك فكرة الحركة في الحائط الثاني للمانيكارات من حيث تفاوت الطول لكل مانيكان إلا أن فكرة الحركة جاءت هادئة بل ساكنة تماماً ولا أدرى كيف يمكنه أن يجعل هذه الفكرة أكثر

حركة ليعطي لفكرته القوة والسرعة المطلوبة للفكرة الجميلة التي اقتتنصها من أن الحوائط تتبع الأشياء . الحوائط هي التي ترمز للماضي ولماذا يمثل الحائط أيضاًذاكرة على مرحلتين مرحلة تسجيل الواقع ومرحلة الاستدعاء على حد تعبير الفنان ، ربما لارتباط ذاكرة الفنان وهو طفل بالحوائط دخل في هذا التصور وأعتقد أنه تصور كامن في الفنان فقدمياً أجداده استخدمو حوائط المعابد والمقابر والقصور لحفظ الذاكرة الجمعية كتبوا عليها تاريخهم وعاداتهم ونوصومهم المقدسة أيضاً وهذه مسألة التسجيل أما مرحلة الاستدعاء ففي قراءة وفك رموز النصوص المكتوبة وأعتقد أن فكرة استخدام الحوائط في حفظ الذاكرة فكرة قديمة قدم الحاضرات الكبرى في التاريخ الإنساني ، لكن استخدام الفنان للحائط الأبيض وإضافة هذا البعد الحيادي للحائط من خلال هذا اللون يضفي الجانب الشخصي على الحائط والذي يعد من صميم فكر الفن المفاهيمي الذي يعتمد الفنان في تعبيره عن أفكاره نوع الفنان من طرز الكلاسيكي أو حديثاً سيبتلعها الحائط لدلالة على استمرار الزمن وما كان كلاسيكياً أو حديثاً سيبتلعها الزمن ويتحول إلى الجانب الآخر- الماضي - الذي استطاع الفنان أن يعطينا الإشارة إلى أن وراء هذا الجدار الأبيض يكمن الماضي وما نقف نحن على أرضيته هو الحاضر الذي يزج بنا رويداً رويداً إلى حافة الحائط الفاصل بين الماضي والحاضر لنجد وبأسرع ما نتصور ماضياً . استخدم الفنان مرادفات شخصية حميمة تتعلق بالإنسان نفسه في أي مجتمع وأى ثقافة من قبيل أشياء كالمناضد والكراسي والزجاجات والكتب.

الحائط الأخير خار إلأ من لوحة صغيرة تتعدد عليها رموز الآلهة الإلكترونيّة صاحبة الهالات الذهبية . في الحقيقة إن اللوحة ليست صغيرة ولكن يمكن تصورها وهي تأخذ مسافة تكاد تقترب من ربع الجدار وربما يتبع ذلك من ضيق قاعدة العرض . كذلك فرض الفنان إيقاعه الخاص علينا من خلال بدء العرض من اليسار وليس من اليمين كالعادة في شعوب الشرق العربي وفي هذا لفتة كبيرة إلى ضرورة النظر إلى مفهوم ومنظور وتصورات الفنان الخاصة المتعلقة بكل القضايا الكبرى التي يتناولها الفنان .

متابعات نقدية

ملامح شعرية للجسد منذور لرمل مصطفي عطيه جمعة

الشعرية كمصطلح ، يقصد بها : مجموعة الأنساق والقوانين التي تحكم العمل الأدبي وتجعله متميزة . أى السعي إلى التعرف على الخصوميات والمفردات التي تميز العمل الإبداعي ، عن طريق اكتشاف عناصر الجمال التي تحكم هذا العمل ، أو اكتشاف بعض تلك العناصر ، ودراسة علاقة هذا العنصر مع غيره من مفردات الرواية والتشكيل في العمل الشعري . أما "الجسد" كمفهوم فيقصد به: طريقة التعبير التي يصوغها المبدع مستخدما فيها الجسد كأداة إبداعية وعنصر روئوي يشارك ويتعاضد مع سائر العناصر الأخرى في تشكيل الإبداع .

ولدى الولوج الأول في تلك التجربة الشعرية ، نرى ولعاً لدى المبدع بالجسد ، ليس على المستوى الحسي ، بل على الجسد كشكل يحوى الروح بداخله ، أى الذات البدعة ، فنحن نتلمس رغبة حميمة أو بالدقائق جزئياً على هذا البناء العضوي الذي يشملنا داخله ، يحاول أن يتامله ، تأمل الشاعر ، وتأمل المتسائل ، الذى يعمل على إشراك الجسد ضمن الخطاب

الشعرى ، وضمن حركة القصيدة ، وضمن العلاقة التى يحاول أن يقيمهها مع الواقع المعاش.

ومن خلال هذا التطور نستطيع أن نحدد مجموعة من المحاور الشعرية التى دار الجسد فى ثناياها ، مقىما علاقة جدلية وانعكاسية مع عناصرها.

الجسد / العنوان :

حيث يكون الجسد عنصراً فارقاً منذ البدء ، وأعني به العنوان ، فالجسد كلفظ ، هو مدخل لصوغ الرؤية ، جاثم ملح في عناوين القصائد : من مثل "جسد يحتاج لتهذيب" ، "علنى أخطو على جسدى" ، هذا على مستوى اللفظ بذاته حيث حيث الجسد هم يسيطر على الحالة ، ويكون هدفاً للتهذيب أو الامحاء لصالح الروح . أما عناصر الجسد فنجد منها قصائد : "عارية .. سوف ترقص" ، "امرأة تدخل" ، هنا الجسد الأنثوى ، ضمن المنظومة الشعرية المعتادة التى تعامل مع المرأة في هيئات عدة ، الجسد أولها . أو نلمس العناوين التى تحوى الجسد الحركى ، مثل قصائد : "أومض كيما تحوم الفراشات" ، "سابكى .. ربما انفعلت بلادى" ، كما يعيش الغزارة ، "أتهياً كى تنحللى بي" . فكان الجسد الشاعر يتهيأ لتكوين علاقة جدلية أساسها الجسد ، فى علاقته بالأشياء والعالم ، على مستوى الجزء والكل ، وهذا يدل على الرؤية المتكاملة التى تختلف العالم الشعرى فى هذا الديوان ، والتى تعمى وتسعى إلى محاولة فهم العضوية الجسدية ضمن القصيدة ، أى استيعاب الجسد ليكون ضمن الحوار الجدلى الذى يجتهد فى تكوينه مع عالمه الداخلى ، وعالمه الخارجى.

الجسد / الرؤية :

"جسم عراه الوجد

وحشته الريح

فقطاه الوقت بأمكنته ..

هذا هو المدخل الأول لأولى قصائد الديوان ، يعلن عن التميز الجزئى الذى يحاول أن يطرحه الشاعر ، وقد أثر أن يكون هذا ضمن أول قصيدة ، التى حملت فى عناوتها دلالة توحى بالرغبة الحميمة فى السعى لاكتشاف كنه هذا الكائن الماوى ، والخلص من زواجده . وتصبى الروح وسيلة للتعرية الجسد "عراه الوجد" ، وتتحول "الريح" كعنصر خارجى من العالم ، إلى وسيلة ثانية

للتعري . أى يتضاد الحسن باللحسى ، والداخلى بالخارجى ، فى المحاولة
الذئوبة لطرح السؤال :

”جسد يحتاج للتهذيب زوائد“

مازال يضج بالأنثنة

ويحن إلى شئ ما :

لاتبلغه الأعمار ..“

هذا السؤال هو المحور الذى دارت حوله القصيدة ، وهو يحمل نوعاً من
الطرازجة ، وإن كان السؤال ومحاولة التهذيب تخضع لأن يصبح فى النهاية
”جسد ببلورى ، شفاف“ ، فى رؤية نشم منها رائحة التسوف والرعبنة
التي رأت الجسد مجرد حاوية للروح ، يشدها إلى ملذاته ، فأصبحت دهوة
التهذيب ماهى إلا محاولة للتخلص من ربقة المادة ، كى تكون شفافية فقط ،
لاتحتوى إلا الروح . ويتأكد الأمر من القصيدة التالية لهذه القصيدة ، حيث
يقول :

”يأيتها الروح ، انطلقى ،

حلى ، فى جسد شفاف

قد هبىلى ..“

بذلك تتكامل الرؤية للجسد ، ويصبح التهذيب مجرد شعار ، ومدخل
للتخلص من سلطان المادة فى اتساق مع الرؤى التى تنظر بعلاء للجسد ،
ضمن المفهوم الاثينى الذى فصل بينهما .

ويقول مخاطباً أميمة (كجسد) : هيا كلينى / علنى أخطو على جسدى /
وأزرع ذى فنونى / علنى أنجو بروحى ..“ وتزداد الرؤية ليصبح الجسد
مرادفاً لكل ما هو مادى فى الحياة ، فيكون هو المدينة : .. مدينة راودته .. /
وغلقت أبوابها ، ورمته فى النيل المهجـ ..“ وتفتح محل حتى تصل إلى الجسد
العضو ، حين كان فى أقصى الحديقة يمارس لذة جسدية ، على فتاة (جسد)
ذات رتوش يتخيلها ، فتدخل فجأة المرأة/ الجسد و ..

”تم قدامى ، ومن خلفى ،

وكنت فى أقصى الحديقة

غارقا فى التبغ ، محترقاً دمى ..“

استحالت التجربة إلى علاقة عنوانها الإعجاب الجسدي ، والجيرة في التغسر للوصول إلى المرأة الجسد والغموض ، وظل السؤال غامضاً لديه ، وإن أوحى الأسطر بما فيه.

فالمراة عادت - كالمعتاد - شيئاً وفتنة وسؤالاً، يطارد الذات الشاعرة ، فتضمحل رؤيتها ، ويفرق في سؤال أعاده إلى المادية المألوفة . ونفس الأمر في قصيدة " امرأة تدخل "، حيث يكون الجسد مثلاً في المرأة وهي تدخل في صومعته (الشاعر المعذل في بناء عاج)، ويكون التكرار بالشكل الهرمي هو مفتتح القصيدة ، في تجربة تتشي بالعرمن على ابتداع بناء جمالي ، بمحوار يتشابه مع الوحي المنزلي ، ف تكون المرأة مع ولو جنا في الحوار هي شيطان الشاعر الذي يطل عليه ، ويبقى سؤالاً معلقاً في فضاء النص . نفس الروية التي نراها في عراك الشاعر مع الأنثى القصيدة:

" يا امرأة لها طعم الفضيحة / في غناء الحى / يا امرأة / تزوق لى خرائتها / لأهبط .. "

وهكذا يكون الجسد ذا معزوفة متعددة الاوتار ، حاول أن يكون سؤالاً فلسفياً ، ولكن ظلت تيمات الشعراء التي تراوحت بين القصيدة والأنثى تتطارده وبكثرة.

الجسد / الحركة والفعل الإيجابي:

تحمول مواجهات الشاعر للحياة ، ومحاولته التغييرية لما حوله ، إلى تعبير جسدي يفارق ما اندرج عليه أصحاب الكلم ، وفي إشارة إلى أن عالمنا لم تعد الكلمة فيه وسيلة المثقف للتغيير ، بل انزلق مثل غيره ، بالجسد ك فعل إيجابي تغييري ، وإن كان لا يتم إلا بالكلمات وعلى الورق فقط . يقول:

" سوف أفرك شمسى ببطء
وأشعل أعضاء جسمى
وأغمض حيناً ..

.. ولسوف أدب على ركبتي ، فيحدث برق ورعد (فهل سوف تطرد ؟) ..
ويزيداد الأمر ، لتصبح مفردات الجسد ، وسيلة أخرى للإفصاح .. " يأميمة ، حرکي هذا الهواء / لعل(أسماء) التي راحت تفني / أستطيع سماعها .."
فصارت حركة الهواء إذاناً بمحو كل ظلام وغشاوة ، فلجاً إلى الفعل

الجسدي ، في يأس من فعل الكلمة . ويكون تأمل الجسد في تعبيراته ، والشرطى يمرون باحثاً : ياترى ، هل شم رائحة ارتعاشك ؟ / أم ترى لمح اصطكاك الركيبيتين ؟ *

فهل يسخر من تراسل الحواس ، وهو يتأمل اختباءه ، أم غرق في هروبه فالتبس الأمر عليه ؟ ، فهل سيشم الشرطى ارتعاشة أطرافه ، أم يلمح فعل الاصطكاك الصوتى ؟

ويصبح التعبير الجسدى هو البطل والفعل المسيطر ، وتتروى الصورة ويكون الموقف الحركى هو عنوان الإبداع ، وهذا ملحوظ في الكثير من القصائد .. فامضى .. أدور مع الأرض / حتى أدوخ / وحين أجوع / سارمى السلام / على شجر / ثم أمضى / إلى حائط أيل للغناء " صار التعبير بكل ما هو جسدي من اللف والجوع والكلام والمضى ، هو الطريقة المثلث لاقامة علاقة عضوية حية مع كل ما هو كائن حول الشاعر .

الجسد / التناهى :

" مدينة راودته وغلقت أبوابها .. " غلقت أبوابها / ووضعتك في التابوت / واستبكت عليك الطيبين " فالتناهى مع قصة يوسف في القرآن في مشهد الفتنة ، حيث استعفف ، وفي إلقاء الجسد الطفل في قصة موسى القرآنية ، حيث ظل الطفل في التابوت وحيداً . إنه التناهى الذي ينحصر في يوتفه التجربة ، ليجعل الجسد عنواناً للعفة في هذا العالم ، وموحياً بالغرابة والوحشة للذات الشاعرة ، كانها طفل في تابوت وسط الماء . وأيضاً في قصيدة " امرأة تدخل " : التناهى مع حادثة نزول الوحي ، حيث الغار والشاعر جسد قابع في تأمل ، والوحي جسد أنشوى ملائكي ، يطرح أسئلة ، يعجز الشاعر عن إجابتها رغم أنها لا تزيد عن " اقرأ .. اقرأ .. " ويكون الرد على الوحي الشعري ، بفعل جسدي ، يتراوح بين الجوع والصوم والمسمت .

سعادة متأخرة

لأقبح أيضاً شعرتيه

محمد عبد الحميد دغيدى

الواقع أن قراءتنا لهذا الديوان الشعري تقترب كما سيتضح الآن من قراءتنا لمجموعة قصصية ، وهذه في رأيي طبيعة الحديث عما يطلق عليه (قصيدة التشر) فشعرية الحديث وليس شعرية القصيدة هي ما يتكون عليه الشاعر (فتحى عبد الله) فى ديوانه (سعادة متأخرة)..

ففى قصidته (قهوة الصباح) مثلا رغم أن الحديث أو الأحداث هنا سلبية ومظلمة ، إلا أنها تعبر بحق عن الواقع الذى نعيشه ، الدرك الأسفل الذى هبطنا إليه ، من ناحية أخرى تتناغم تلك الأحداث معًا محققًا ايقاع الظلمة والهبوط : " الذين ببروا له / أن يقتل أصدقاءه / أثناء لذتهم / ويضع أحشاءهم فى أكياس صغيرة / فهم فى حاجة إلى هذه السعادة / ولا يصلون إلى ذروتها / إلا اذا لعبوا / بعظام مصارعين من الدرجة الأولى / وهم يشربون قهوتهم فى افطار الصباح " كذلك فى قصيدة (ابريل أنها الطيب) يتناغم الشعور بطيبة هذا الشهر ، مع سلبية هذا الشعور ، فهو يعطينا فرصة للهروب من الواقع من الآتى إلى الآخر الذى يستحيل وجوده رغم بساطته ، إنه يعطينا فرصة لاختراق ماليس له أساس من الصحة ، باختصار يعطينا فرصة للكذب خاصة على أنفسنا حتى نستطيع مواصلة الحياة ، ومن هنا تتبعد شعرية الحديث حتى لو كان كذبا : " ابريل أنها الطيب / بقرات أبي / فى حاجة إلى دواء / وأولادى مصابون بأمراض الكلاب / ولحيتى طويلة / وأحبها هكذا / لأننى وحيد / وزفافى كلهالى " .

وفى قصيدة (لابسو الكاوبوى) يطرح الشاعر سؤاله : هل أصبحنا مثل (لابس الكاوبوى) ؟ فصار كل منا ملائكة متحفظا بمسدسه فى جيبه جاهزا للطلاق فى كل وقت ؟ وبهذا التساؤل يتزن الأمر ، وتختفت حدة الاندهاش من ورود فعل القتل سبع فرات فى القصيدة ، وبذلك يتحقق

ما يشبه التوافق أو التماشى في الحديث .. مثلما تتناغم الأحداث معاً في قصيدة (قد تضحك زوجتي مما أفعل) لتشكل إيقاع الزمن الرديء ، فمن تولد الشك في قلب اليقين "مؤكد / أنتي بذراعين / ولا ينفعني مأذناف عليه" إلى القسوة والتجزير والجمود "وعليهم كذلك أن يحرقوا جثتي / إذا لزم الأمر" إلى التناقض المريع بين الرقة والعنف بين الجمال والقبع "ورجل بمفرده / يحمل البيانو / أصابعه كلها تحيلة / يترك الجثة في هدوء" إلى القيد التي يضعها البعض على الآخرين حتى عند ممارسة أبسط حقوقهم "ولحيتي / التي تسبب كثيراً من العرج" تتكامل في الذهن صورة الآتي بكل نوافذه وعيوبه ، وتتوارد إلى السمع معزوفاته المتواالية لتصنع معاً لحنه الشاذ الغريب ..

والشاعر يتوقع منا كقراء أن نتساءل في دهشة : هل للقبع إيقاعه مثلاً للجمال إيقاعه ؟ فيجيبنا بوضوح من خلال أحدى قصائده بعنوان (تحت حرارة منخفضة) فيقول: " ولا ينفعه فين هذا / الا أن يصرخ / حتى يعثر على الإيقاع المناسب " ..

× ويطرح لنا في قصيدة (الإعلان عن البهجة) صورة لشعرية الحديث الأسود أو الحديث الآخر ، فتلك مشاهد عديدة للتناقض وحده : رجال الدين الذين يرتدون الملابس القصيرة رغم أنهم مثال الاحتشام والوقار " فشارك قسيسين / بملابس قصيرة " ومعنى البطولة الذي اقترب في هذا الزمان بفعل الجريمة واقتراف الذنب " ولكن يصبح بطلًا / عليه من الأن / أن يقتل أنه " وتلوث من كانوا يرمزون للأصالحة والثبات ويشار إليهم عند الحديث عن الفضيلة والطهر " فلا يحين أحذوا على أنفسهم / أن يمارسوا الجنس / في احتفال عام .. تلك المشاهد تعزف كلها على نغمة التردى والهبوط ..

والواقع أن القتل هو ذروة الإيقاع لتلك النتفات النشاز التي أصبحت سمة لهذا العصر ، ولذلك لم يكن غريباً أن يتربى بشكل منتظم في قصائد الديوان الحديث عن القتل والقتلة ومشاهد الجثث .. وهذا نموذج آخر لشعرية الحديث الآخر أو الوجه الآخر للحديث ، فإذا اعتبرنا الجمال وجه الأول ، يكون القبح وجه الثاني أو الآخر ، هنا " شعرية العنف " ، فالكل يعزف على وتر العنف في قصيدة (سعادة متأخرة) والتي يحمل الديوان عنوانها :

المصارعون السود وجنائزه الغراء ووممثلة الاغراء وهى تقطع أصابعها بالبليطة المصفيرة والمتفرجون الذين يمارسون الجنس والزوجة التى تأكل لحم زوجها .. كل ذلك يشكل مع نداء الشاعر بأن نصدق وكالات الأنباء والتعمير الخى بالاتفاق والكتب السائدين فن هذا الواقع ، إيقاعا غريبا للقبع أو الوجه الآخر للحدث ..

ويتوالى تتابع وتواتر المتناقضات المذهبة التى يتسم بها هذا العالم فى قصيدة (أترك أبطالى حسب أدوارهم) ، فكيف تجتمع حرارة اليد مع وجود كثير من القتلى بها ؟ وكيف تقتربن الأزهار وهى وسيلة التواصل والتعبير بالبرودة ؟ وكيف يصاحب التحرير على النظافة والنقاء تراكم العديد من الجثث ؟ .. وليس من قبيل المصادفة اذن مادمنا نتحدث عن شعرية القبع ، أن يتردد ذكر اللوطبيين فى الديوان كرمز لانتشار الإباحية والرذيلة ، وتكرار ذكرهم هنا يمثل دقات إنذار لما يمكن أن نصيره ونؤول إليه ، بمعنى آخر يتتحول هذا التكرار الى مايشبه الرؤى الذى يطن فى آذاننا ، إنه جانب آخر من إيقاعية القبع ، معزوفة أخرى من معزوفاته .. ولكن يبقى السؤال : هل تكفى ايقاعية الحديث وحدها لتحقيق التأثير والتحول ومن ثم الاستمرار والبقاء والخلود ؟ وبمعنى آخر أكثر بساطة ووضوحا : هل تفنينا ايقاعية الحديث عن إيقاعية القصيدة ؟

« كوميديا الانسجام » لوحات من الشجن والبراءة شريف صالح

ربما يضمن القارئ حين يجد القصة تمر أمامه من السحاب . سطران أو عدة أسطر .. فتبعد المجموعة القصصية « كوميديا الانسجام » المصادر عن

دار مركز الحضارة لمحمد بركة مجرد مجموعة من الصور والعبارات الخلابة والوصف الطفولي للأنثى مما يدفع القارئ للتساؤل : أين الحبكة ؟ ما الذي تقوله هذه القصة الخاطفة ؟

وليس هناك مفر من أن يبحث المتلقى عن مفاتيح أخرى للدخول إلى العالم القصصي لمحمد بركة.

المفتاح الأساسي لفك شفرة النص يمكن استلهامه من الاتجاه التأثيرى فى الفن التشكيلي والموسيقى والأدب . يؤرخ البعض لبداية هذا الاتجاه عندما رسم كلودمونيه كنيسة ويستمنستر المطلة على نهر التايمز عام ١٨٧٤م ، لقد بدت معالم الكنيسة غارقة في الضباب ، وكان الفنان لا يصور الكنيسة ذاتها وإنما يصور انطباعه الشخصى عن الكنيسة.

وقد تطور الاتجاه التأثيرى على يد مانيه ورينوار وديجا وغيرهم وأصبح يهتم بالتأثير العابر لتدخلات الضوء واللون والحركة ، وإهمال الخطوط الخارجية المحددة والألوان القاطعة ، كذلك أصبح الاهتمام بالطبيعة على نفس درجة الاهتمام بال الموضوعات الإنسانية.

وفي الموسيقى أيضاً نجد أعمال ديبوسى تعنى باللغة الوصفية ، حيث يحلق يابس الوسائل وأقل التفاصيل وتنعم جو التصوير من عناوين مقطوعاته الموسيقية مثل « خطوات على الثلوج » ، « سحب » ، « روض تحت المطر » : فـى حين ظهرت الانطباعية فى الأدب فى بوياكير أعمال بودلىر وما لارمي ، وكانت تعنى الرواية الذاتية فى مقابل الرواية الموضوعية ، وكان الكاتب يعبر عن انطباع ذاتى أو حالة مزاجية فى عمل فنى ما .

وإذا ما ستعدن ما قلناه آنفاً عن الاتجاه التأثيرى ، لوجدنا أن أهم تقنياته تتمثل فى : الإيحاء ، الوصفية ، التلقائية ، الشعرية ، الغموض ، استكناه الذات . وهذه السمات مجتمعة تشكل العالم القصصى - لنصوص كوميديا الانسجام - جماليأ . بمعنى أن كل نص هو لوحة وصفية أو « كادر » مرسوم بحس انطباعى ، يظهر هذا من العناوين مثل : « هكذا كالحلم » ، « ثلاثة غيمات » ، « شعر البنات » ، « المارد المرح » . ومن وراء العناوين تظهر قرينته الثانية - كفر سعد البلد - بشكل جمالي ينتهي قلباً و قالباً إلى التأثيرية . فى نص « هكذا كالحلم » يقول القاص فى ص ١٧ : « رأيت المطر يهدأ . كان ذلك

شبه مؤكّد حين نظرت إلى سطح الترعة . ومن فوق السطوح ، غدت المزاريب أفل انفعالاً وأكثر رزانة .. ثم يضيف : انفوج تكتل السحب الداكنة قليلاً ، وأطلت السماء على الأرض بعشرات العيون الزرقاء . وتسليت أشعة الشمس مبللة وهي تمسح أوراق الكافور المغسولة بالمطر ، أى ليس في القرية فوضى أو قمامه أو طين أو حتى أطفال مصابون بالهزال يرتعشون من البرد ، بل إننا أمام قرية المطر والغموض والشاعرية التي تذكرنا بشاعرية السياس - لأدرى لماذا السياس بالذات - ثم يتكرر المطر في لوحات بركة المستدعاة من منطقة وامضة ، يتصارع فيها التخييل والتذكر ، مثلما نجد في نص " معلهش " ونص " أحمد حبيبة يتذكر " .

هناك في تلك اللوحات احتفاء بالطبيعة وبالإنسان على السواء ، الجد العجوز يخرج تحت المطر ليمعالج بفأسه الصغيرة آثار المطر ، وأحد الفلاحين - في خلفية الصورة - يسير بعربته متوكلاً على السيول .. وإذا لم يوجد في الطبيعة ما يعزز الإحساس بالجمال فإنه يبحث عنه من خلال امرأة ريفية تفسل الأولى على شاطئ الترعة ، فتوصف بأنها ذات جسد عفٍ ونهدفين ممتلئين في لون الحليب يرتجان حقيقياً ، وخضراء العينين أيضاً .. وبضربة فرشاة سريعة يكمل القاص صورتها بأن " زراير فتحة الصدر الثلاثة المقطوعة وكان يبقى أجمل لو كانت قد استفنت من دبوس قليل الحيلة تتشبّك كبديل فلا يستر شيئاً " ص ٢٠ .. لأنّ أن قطع الزراير الثلاثة كان بسبب فقر المرأة وإنما لأن القاص يريد تكوين انطباع أكثر إثارة يجعل القروية الغنية التي تعمل بحماسة كأحدى فاتنات الأساطير .

هكذا تتزوج الشخص والأشياء في مساحة مشتركة بين الذاكرة والخيال وتتجاوز القرية حدود الواقع المعاش لتتجلى علينا مرة أخرى في واقع مختلف نسجه القاص بطريقة لا تخلو من غموض أحياناً ، فتستدعي صورة القرية عند القاص صورة عتيقة لكنيسة ويستمنستر الفارقة في ضباب لندن .

نصوص محمد بركة ليست صوراً ساكنة ، بل إنها متوتّرة تتوتر اللحظة ورهافتها ، تتكاثف الأزمنة : الماضي والحاضر والمستقبل ، في لحظة حادة مشحونة تخفي على المكان اهتزازاً وحيوية . لذلك يبدو المكان شاهداً على

التحولات الدرامية ، وعلى غنائية المشاعر التوارية ، فلا يوصف ببرود وحياد ظاهري لكنه يوصف بحركة نتناغم مع حركة المشاعر وتحول الأحساس ، ومن نماذج هذا المكان دكان باائع التموين من خلال قصة « الأرشيف » من ١٢ أو الغرفة الصغيرة ومفرداتها لحظة انقطاع التيار الكهربائي في قصة « ينسانى الموت » من ٣٣ .

بالطبع لا يقتصر القاص على استدعاء أماكن ما في لحظة توتر صافية ، هناك أيضاً أشخاص ترسم لهم « بورتريهات » ملائى بالحزن والشجن ، في تحول مكثفة مثلما نجد في قصة « عشيقة الحاج معرض » وهي واحدة من أفضل قصص المجموعة ، إذ تطالعنا صورة في غاية الحيوية والشجن للحاج معرض وهو يواجه لحظته الأخيرة (من ٢٥)

أى أن الأشخاص والأماكن - داخل اللوحة - يستمدون شراءهم من خلال كثافة اللحظة وتوترها الدرامي ، في دفقات لذوية خاطفة تتواءم تماماً مع الدفقة الشعرية . فذاكرة القاص لاستدعي موقفاً بعينه كى تصصفه ببرود وإنما تستعيد إحساساً مراوغاً (وهذا أصعب) .. هذه العودة إلى البقاء المور الكامن في الذاكرة يتم دون بناء درامي متسلسلاً وتقليدي إنما يدخل الكاتب إليه بحيل بسيطة تظهر في افتتاحيات المتعددة :
مثل « أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولده النبي ، أى يوم الحلاوة وذكر انبط » من ٩ . ومن خلال توتر اللحظة يشركنا القاص في استعادة ذاته بل ذاته أيضاً

استعادة بريئة لذاكرة مثقوبة وحبلى باللحظات ، فإذا النسخ ينتهي بانتهاء الإحساس باللحظة ، وليس بالنهاية التقليدية المتعارف عليها وعين يتجدد إحساس آخر حول نفس اللحظة / المقولة فهذا يعني ذمةً جديداً .. وهكذا .. لهذا كتب الرواوى عن موت أخيه مارق : صين وكأنه فحسب يغير زاوية النظر إلى ذات الكادر تبعاً للإحساس . وعندما يحلى على قصة لعبد الحكيم قاسم عنوانها « صاحبة المنزل » يذهب إلى إحساسه الانطباعي بالقصة حين يقول إن قاسم درويش طيب ، (من ٢٧) .. ونير واع يتجدد الإحساس بالملوقة نفسه (وليس بتاتسم كاتب القصة) فيزيد القاص رسمه من « ديد وبمحاسن جيله - لاجيل عبد الحكيم قاسم - وذلك ثنى قدراته التعبيرية (من ٣٧)

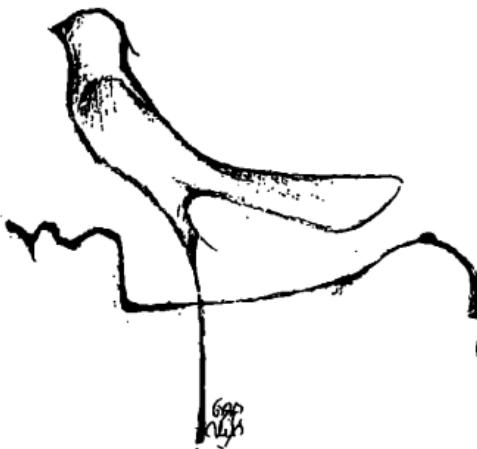
التي لو تفرستنا في ملامحها قليلاً سنجد أنها صاحبة المنزل لكن بقلم محمد بركة.

قد تختزل اللحظة لتصبح مجرد إحساس لغوى باسم «مارى» فت فقد شيئاً من العمق الإنساني بضغط من الافتعال اللغوى ، وقد تعتد اللحظة إلى مجموعة من الصور والخيالات المتتالية مثلما في القصتين الأخيرتين حيث تبدوان كتشان خارج على إيقاع المجموعة وبين هذا الاختزال والامتداد تتواتى النصوص في إيقاع موسيقى محبب ، وتشى بعالم من الفسيفساء أو اللحظات المتلمسة في ذاتها ، لا يتعامل معها القاص كمحترف ولا يطيل الكلام ليثبت أنه كاتب متمن ، كما أنه لا يدعى اهتماماً بقصصياً كبيراً - حتى إن وردت عرضاً - لأنه يكتب من وجهة نظر الهواية المحببة ، التي تمارس حقها في الوجود دون أن تثقل على أحد.

لذلك لانبالغ إذا قلنا إن محمد بركة وصف للحظة المنسوبة عبر الذاكرة والزمن الغائم البعيد .. وصف للقطة التي رأها قديماً بهشاشة الطفولة الأولى التي لم تكن بريئة تماماً !!

لقد توأم تتقنيات الاتجاه التأثيرى مع عيون الطفل الكامنة وراء المشاعر والصور المختلفة . فالبطل والراوى هو طفل يتكلم عن شخصه المحببة والأليفة في نطاق الأسرة مثل : الجد والاب والأم (التي تكررت كثيراً) والأخ المتوفى والجيران .

هذا الطفل يمارس ألعاب الطفولة مع الأصحاب ، ويقابل المطر بالغناء ويستخدم كثيراً كلمة «ولد» أو «عيل» بجانب شخصيات الكرتون الشهيرة مثل فيجا وأبنى الفسب . وببراءة يلعب (الراوى / الطفل) بالصورة البلاعية جنباً إلى جنب مع الكلمات العامية الركيكة . فمثلاً الكلمة الماثورة عن سيدنا عمر رضي الله عنه «أرى الشاب فيعجبنى » تتحول إلى «أرى البنت فتعجبنى ومدرسة البنات يكنى عنها بملكة الدانتيل الأبيض . هذا اللعب بمستويات لغوية متعددة يتوازن في بساطة مع خلط الموروث الشعبي بالموروث الديينى ، لعبة اسمها الكتابة يمارسها طفل ، لن نملك إلا أن نصفه بالبراءة ، رغم أنه يمتلك عيوناً لاقطة وثاقبة ، ذات إحساس حى ويقطن يتدفق في سهر .



«أذكر أنه يوم الاحتفال بموعد النبي ، أى يوم الحلاوة وذكر البط الشينى والبهجة الموسمية ..» هكذا يحدد الرواى تاريخ وفاة أخيه بدقة وبغورية ، وعندما يرسم لنا مكان الحادث يقول فى منتهى السلasse واصلاً الكلام : « والبهجة الموسمية التى تترقبها عزبة نائية لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئاً» أى أنها فى عزبة نائية يوم مولد النبي عليه السلام فى الثاني عشر من دبيع الأول ، فى نهاية السبعينيات حين أطلق على الرئيس السادات هذا اللقب . كل هذا يختزله الرواى فى سلasse وصدق .. يكون النقد الاجتماعى أو التهمم السياسى كامناً وراء السطور لكن ما يشغل القاص أكثر هو حضور (اللوحة / اللحظة).

إنه عالم طفولى قائم على المؤقت والدائم .. المرح والخروف .. البراءة وقليل من الخبر .. الجنس فى عفويته وبساطته .. عالم انفعالى إما أن يتورط المتلقى فى لحظاته وإما أن يقف على ضفة النهر الأخرى . وأبدأ لن تكون هناك جدوى من التعاطف مع النصوص دون أن نلتج إليها ونحن حفاة وأبراء .. مجرد أطفال صغار يجوبون الشوارع والحرارات فى يوم مطير ، يغنوون بشيئاً خالداً بكلمات مبهمة ، قبل أن يكتشف عنهم غطاء واقع موري دأب دائمًا أن ينهر فيينا طفولتنا ، يتنفس القوة التى دأب بها محمد بركة أن يستعيد معنا الطفولة بعيون طفل لاتموت ، ولا تقتل بداخلها الدهشة أبداً ..

أصوات

جديدة

ضراوة المبتسם

وليد طلعت، إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزوفى

محمد داود، محمد طلبة، عمرو النوسانى

تقديم:

فريد أبو سعدة

هذه أصوات جديدة . وإن لم يكن تماماً بمعنى أن بعض هذه الأصوات قد نشر في مطبوعات لكنها محاصرة ولا تصل إلى أحد . عرفت هذه الأصوات من خلال اللقاءات العديدة التي تنظمها قصور الثقافة والتى أتاحت لي، ولغيري، القاء بهم، هؤلاء الممسوين بالكتابة، الممتلئين حتى الحافة، بالرغبة فى النظر إلى الجهة الأخرى من الألم! والتنزه فى حدائق الجنون .

أبدو لراحة لأبعد ما يكون

وابتسامتي

التي تداعب وجهى

تكسبنى ضراوة عالية

فى مخالطة الآخرين

هكذا تواجه حنان جودة العالم ، بضراوة المبتسם، المسلح بما يكفى من اللماحية! .

نعم ما الذى يمكن من رؤية مفارقة، وهل من ضرورة لأن تأخذ شكل الحاذدين الكارهين إذا ما كنا نريد مواجهة العالم؟!

أنها التناقلات المذهبة للاستعارات ، التناقلات التي تجعل الحياة والموت يتربصان بنا بأشكال غاية في التذكر والتمويه، الاستعارات التي تؤكد أن الحقائق لا تزال قادرة على إثارة المذهبة.

يقول إيهاب خليفة:

ما زلنا نتذكرة

تضريعات التورطة المساقة في احتفال

الأمس

كانت جميلة

ثلاثة أدوار ، وشمعة واحدة

من أجلها حشوونا في درج جانبي

وأخلوا لها عدة أرصف

كانت تقول:

لم أكمل يوماً واحداً

لا تقطعوا أوصالي

دعوني أموت طبيعياً بالعقل والفطر!

أما ميرفت العزونى فتضعننا فى «الاختبار» الصعب ، تضعننا فى طقس غامض وسرى لذات تراقب العالم بفرح العالم لا يأبه بها ولا يشعر بوجودها ، ذات محاصرة لا تجد الطريق إلى التواصل الحميم مع الحياة ، لا تجد الباب الذى يمكنها من الخروج إلى العالم . هل هى استعارة أخرى للموت صانع الاستغارات.

قصدت تأثير الكلام عن محمد طلبة ومحمد داود ، أو لأن ما ننشره لهما هنا هو فقره من رواية كل منهما رواية محمد طلبة بعنوان «خط ثابت طويل».

ورواية محمد داود بعنوان «قف على قبرى شويا»!

السبب الثانى هو هذا المذاق الحريف الذى يميز كلاً منهما وإن بطريقة مختلفة وفي اتجاه مختلف أيضاً ، والسبب الثالث ، فيما أعتقد ، هو أن كتابات الآخرين ، في الشعر أو القصة ، تتشفى إلى التقطير وتميل إلى التجريد بينما ينحو كل منهما إلى الاعتراف من الواقع الحى ، اعتراف الشرى الذى يملك الكثير من تفاصيل المواجهة بين الموت والحياة ، اعتراف يجاور القسوة بالتسامح ويؤاخى بين الغناء وسلام موسيقية مهجورة ولا تكاد تستريح من مخايله الخبرة الإنسانية لك كلما أمعنت فى القراءة.

يقول طلبة «لماذا تكذب عليه؟! لماذا . أنت تعرف تماماً أنه سيموت إن لم يكن اليوم فنداً ، وإن لم يكن غداً فبعد عام أو اثنين . هالك لا محالة . لا تود أن تنطقها . تهرب من حروفها من وقعاها على سمعك . لكنك تجابه كل يوم عشرات المرات ، قل لي إذن يا طارق ماذا تحت جلدك الآن؟».

إنه الموت «مرة أخرى ، يقبع تحت الجلد ، هكذا ، خط ثابت طويل . يقول محمد داود: «وماذا يحدث لو عصلجت ولم تكن الكبدة جاهزة قبل

عودته من المدرسة أو من الدرس أو قيامه من النوم .. الأكيد إضراب عن المذاكرة ، فتبدأ مفاوضات صلح يتلطف عبده ، الوسيط الوحيد دائمًا ، بسياسة وسط العصا ، يسرد الحكم والتأثيرات التي حفظها عن جد مات «البطن قبر تتساوى فيه الأطعمة» «البطنة ضد الغطنة». يصيّب بقصه مسترضية لإفهامه أنه معه وإنما هو كلام ليرضيها . ويبيّن لها لتفهم أنه معها وإنما هو كلام ليرضي الولد وإن ينتظران إليه معاً يرسم وجهه ويحور عينيه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد».

منذ العنوان «قف على قبرى شويا» ومع التوغل في السرد نحن أمام تجربة لغوية لافتة، وإن لم تكن جديدة بالطبع ، لتطويع العامية في أداء لقطات من الحياة ، يتطلع إلى أن تكون بصرية إلى حد الفوتغرافيا . هذه الأصوات لن تخرج من وصفها بالجديدة ، فهي جديدة بمعنى الابتداء وجديدة بمعنى الجدة في آن.

وأنا أقدمها. هنا لنترك للقراء أن يختلفوا معى أو يتافقوا ، لكننى سعيد بوضعها في الضوء الغامر «لأدب ونقد» مدركاً أنها كثروق الذهب تحتاج إلى الصقل والتشكيل والنخل والسبك ، ومدركاً أيضاً أن هذه أمور تقوم بها خبرة الكتابة والرغبة في الإجاده.

سعيد لأننى أشير إلى هذه الأصوات أملأ أن تقوم بما ينبغى لها، وأن يقوم النقاد بما ينبغى عليهم!! وهذا حسبي أمام القراء.

مزيد من الوقت

إيهاب خليفة

-١-

الأصدقاء.

الذين يسمون الموت بأسماء غير حقيقة

رغبة في التخفى

من أصابعه المشرعة..

أمهاتنا القيمات

اللائي سميتنَا صغاراً

بأسماء البنات..

إنه الحرث على استمرار التنفس

ما يشغلهم

-٢-

نستطيع النوم أخيراً

بعد محاولات يائسة

للخلص منهم

العالقون في جوارينا

مصريرين على تحطيم سوقنا

قبل المغادرة

-٣-

سيكون دمار

بيننا نفتسل من أدراننا

في حجرات ضيقة لن يقطنها سوانا

الفناء الرخامى الواسع

الذى نملك وروده

سوف يعتلى

الذين نحبهم سيأتون

متخلين عن رغباتهم فينا
سيكون شبع
ولن نظماً أبداً.

-4-

ال Maherه
 تستطيع إنجاب عديدين
 لكنها لا تقاوم
 قتلهم المدهش
 ستصنع أبناء
 يحملون انسانية ذقنهما
 وأنفها المتجمد
 بشعر راسخ
 وأعضاء ذكورة ساخنة
 ستصنفهم..

بمجرد
أن
يأتي..
-5-

الولد في الحجرة الداخلية
بكى
حين تحدث صديقه عن سمنته المفرطة
وبكي
حين رأى وجه حبيبته في السماء
يتأكل
غمى عينيه
ورقص..

-٦-

المعجزة

لأنصاف أرباب صغار

يتعلمون المشي بلا اتكاء على الحوائط

ودون تلويث ملابسهم بالطين

بسرعة حارقة

ينفصلون عن الحركة

وتتحدى ملامحهم

الخوف

إنه الرابط الهائل

أيها الأرباب الصغار

-٧-

ستودعك السماء أيتها الاخت

بدموع متطايرة

تغسل ثوبك الممزق

- إنه ليس مطراً

هكذا قال الرجل الطيب

أنت شهيدة يا اخت

لم يكن مطراً أبداً

هكذا قال.

-٨-

أحياناً

يصارحنى أحدهم

أنه- منذ زمن بعيد-

قد قتلنى مرة

يقول

لم أكن أقصد

ويبتسم كثيراً لعودتي السالمة
غير أنني لا أكاد أتوjos
حتى يفعلها
-٩-

من لهؤلاء العفاريت الصغار
فتشرعوا حقائبى ، جيوبى
وأدخلوا أياديهم الشفقة فى قلبي
ليخرجوا صورهم القديمة
من لهم !؟
وأنا واقف على قدمين مازلت
لرعايتهم.

ودائماً .. أرقص على جلستى حنان جودة

الرقص على أطراف الحقائق
أكثر خبثاً ..
وإمساك بالزئبق مستحيل
هكذا .. أمى تقول
وبيدى البىرى أسجل
«سرى للغاية»
لم أزل جالسة
نجيب عينى سريرى
أتخيله ..
لطيفاً جداً معى
يمتحنى اشتعالاً خرافياً
مع دخان سجائره المفرط

بورطني أحياناً في سذاجة مرغوبة
حي يحدثنى عن «تريرا»
-السلحفاة التي أحبها-
وكيف كان يعد ترناحاتها
وهو يرشف فنجان القهوة السادة
-مثل حياتى تماماً-
ويسلم شفتيه لعزف منفرد
يتخيلنى حافة الفنجان
فيأكلنى لهفة
ناسياً إطعامها.
«تريرا الطيبة»
التي لم تقترب ذنبها واحداً
غير أننى أحضرتها
منذ عام واحدٍ
ومعها آخر.. ناضجاً تماماً مثلها
وطيباً أيضاً
ومارست عليهما سلطاتى
بأن أرسلتها بصورة
مشرفه للغاية
لتسكن بيته
بعد أن لقنته أكذوبة أنها
أميرة المعيشة
تريرا الذكية الخباثة
أجبرتها على تعلم السرقة
والتلصص
فأصبحت متفردة في نقل الأخبار
ممتنة حقاً

حين تتصفه وهو يبدل ملابسه
بعد أن تضع يدها على مواطن
الاختلاف والتمييز في جسده
فأراه على حالته وكأنني معه
أشسلوه على أنفاس

Very Rhumantic-

أمثالى امتلاء غير هين بالمرة
أه..

جعلتني أحبه دون أن تدرى
منتقمة مني
ردا على ما فعلته بقريرتها
الذى يكبرها ببلاطة واحدة.

**

«تريزا»
أصبحت أمى لا تثق بي
بعد أن أصابتني ت الخمة
غير عادية
فأصبحت محشورة في ملابسي
قصيرة جدا
رأسى بلا رقبة
يدانتى مرهقة جدا للنظر
سيحتاج الجميع لحظارات خاصة جدا
لإمكانية التعامل معى
ربما..
في ليلة قادمة سأخبرها
ـ بصراحةـ
أن السبب في يدانتى
هو العناق المتكرر

* * *

لا أحد سيشعر بانقلابي
لأنى وحيدة حقاً
كما ياتى كل ليلة
أصفق الباب
صفقة غير لينة
أدبر المسجل
أرقص احتفاء بمجيئه..
للغرفة البعيدة المخصصة
ـ الوحيدة التي تتصل بالـ
فأشعر بسعادة استثنائيـ
أحاول ممارسة الرقص
ناسية أنى بدينة
أتربع كسلحفاة
أنقلب على ظهرى
أحاول ضبط التوازن
أتذكر قول أمري
لو انقلبت السلاحف على
لفترة ما.... تموت

وأموت بجلدي
ولأن الغرفة بع
لا أحد سيشعر
بانقلابي

الاختبار ميرفت العزوني

همت بالخروج لم تجد الباب ، هزت رأسها ، ضحكت في داخلها . تنقلت ببنظراتها في أرجاء الغرفة ، لا أثر لها . جرت إلى الشرفة ، فتحتها ، رأت الشارع ، المدرسة التي تتلتصق بالبنية التي تسكن فيها ، عادت إلى الداخل ، دقت بقوة بكلتا يديها على الجدران نادت على أمها ، أبيها ، أخواتها ، لا أحد يجيب.

هرولت ثانية إلى الشرفة تستغيث بالجيران ، لوحظ لحاره في العمارة المواجهة لها ، دخلت وأغلقت النافذة . أشارت لأخرى ، تجاهلتها . في حسرة قالت في نفسها : لم يبق لى غير هؤلاء الأطفال ، نادت عليهم ، رفعوا رؤوسهم الصغيرة ابتسموا للعصفير المخلقة في الفضاء وانطلقوا داخل الفصول . ظلت واقفة ، رأت رجلا قادما ، بعد تردد ، ألقى بأصنيص الزرع ، سقط بجانبه ، تحرك بعيدا عنه وواصل السير .. أجهشت في البكاء ، عجزت عن استيعاب الأمر ، تحسست جسدها لتتأكد من وجودها ، بحلقت في الحجرة ، أقسمت أنها هي ، نفس السرير ، الدوّلاب ، الملابس لكن أين الباب ..؟ . أين الباب ..؟ .

تأملت الساعة ، جزت على أسنانها ، الوقت يمر لديها مقابلة هامة من أجل وظيفتها الجديدة وعليها اجتياز الاختبار اليوم . فكرت في حل آخر . خلعت كيس الوسادة ، علقته على شماعة ، خرجت رافعة رايتها ، حركتها يمينا ويسارا لعل أحدا يغيرها ، سمعت صوت باعث الخضار . بلعت ريقها ، سالت : بكم الخضار ، لم يجب ، وزن لجارة لها ثم حمل بضاعته وغادر المكان ، صرخت بعزم ما فيها ، ظلت تصرخ حتى أنهكتها التعب ، جلست على أرض الشرفة ، نظرت إلى عصفور حط بجانبها سالت : أتعرف أنت أين الباب !! انتابتها حالة من الهذيان ، راحت تصتفق بيديها وتضحك .

قف على قبرى شويا

محمد داود

«كبدة» مازا ، هى سمعت لكن ت يريد أن تلتقط أنفاسها ، وتستوعب «كبدة .. مازا فى هذا؟» كظفت غيظها ، لو أن عبده هنا لاشتكى وهى تعرف رأيه ، «املئيه .. املئى بطنها .. سدىه» ، سوف تشتكي ، لكن ليس قبل أن تسرع ، لتعود بربع كيلو من النوع غير معروف البلاد وهو بجهل الفرق بين ما أحضرت ، وما عند جزار ، دكانه مفتوح دائمًا قبالة مدخل الحارة الوحيدة ، وماذا يحدث لو عصلجت ، ولم تكن الكبدة ، جاهزة قبل عودته من المدرسة أو من الدرس ، أو قيامه من النوم؟!..

- ثمة ما لا يمكن توقعه ، على سبيل المثال مزاجه ، وحرارة الجو ، وهل فى يده كوب أو أمامه طبق ، لكن الأكيد إضراب عن المذاكرة ، فتبعد مفاوضات صلح ، يتلطف عبده ، الوسيط الوحيد دائمًا ، بسياسة وسط العصا ، يسرد الحكم والتأثيرات التى حفظها عن جد مات ، وقريحة لقمانية «البطن قبر تتساوى فيه كل الأطعمة» ، «البطنة ضد الفطنة» ، يبص بصمة مسترضية لإفهامه أنه معه ، وإنما هو كلام ليرضيها ، ويبيص لها لتفهم أنه معها ، وإنما هو كلام ليرضى الولد ، وإذا ينظران إليه جمبعاً ، يرسم وجهه ، ويحور عينه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد.

- فى غيابه يبأمن من زرابيته ، سيسىء أيامه ، ويلعن شكله ، ودباته ، وبطنه التى تقوده ، وتهافتة على رغائب نفس حمقاء ، وذلك فى رسالة مفتوحة لمن حضر منهم وباعلى صوت ، طالما لم تأت من عند الباب إشارة تحذر من حضوره.

- فى بطن بهيمة الليل ، مع نعيمة فقط ، وبعد أن تعيد بالتفصيل كل ما كان يتعالى همسه المحتد لاعنا العيال ، وسنين العيال .. كبيرهم وصغيرهم .. عندما يأتي آخر العام ، وستظهر النتيجة ، قيذكرهم بالواقعه ، ومثيلاتها ، سوف يكون مؤثراً للغاية وهو يقول بصوت تهدج بالبكاء : « منكم لله .. أنتم السبب .. منكم لله » ، حملهم أمام الله وزر نتيجة العام الماضى ، وانتقلت عدوى

البكاء منه إلى نجوى بحاجة عبده وحاولت تعية أن يتماسكا، وفشل تعيية ، بكت ، فبكى أمجد، وانصرف حسين، أما أحمد وجمال فلم يكونا موجودين ساعتها..

رائحة فضاحة اندلعت من ربع كيلو كبدة، فور أن لسعته نار طاسة ، رائحة مماثلة لتلك التي من عشرين كيلو، ولنجوى أنيف صغير يشم كافى أنف آخر ، «ماما .. ماما» لعبيتها تأثير يصهر أي قلب ، فما بالك بقلب أم ، دون هس بالصوت ، وضفت إصبعها على شفتيها « لا تقولى لأحد » أعطتها قطعة احتواها الفم الصغير واحدة ، لكرتها .. « بدون غموس يا مجرمة .. بدون غموس ! خبرة أنيف أمجد أكبر من نجوى سكت بمكعب فى حجم ربع علبة كبريت ، وحمل أمانة لأحمد الذى هو فيما يعلمون هارب من ظلمة صالة مزدحمة إلى سطح مرض ، وفيما لا يعلمون جالس قرب ثقب فى جدار حظيرة أرانب مظلمة ، يمكن النظر منه إلى بيت جيران ، بالضبط فى مكان خاص تخلي فيه الهدوم ببعضها أو كلها « ماذا تريدين ! » خبيث هذا الولد أمجد ، اضطراب وشخبط تماما كما خطط .. لا تتسلل هكذا مرة أخرى ، ما هذه ! ، في يده ٨ قطعة أكبر من ربع وأقل من نصف علبة كبريت ، كانه غارق فى كتاب إدارة الأعمال « كلها أنت كلها أنت » ثقة فى محلها ، وأمل لم يخب ، هم يا جمل مرة واحدة ، بدون غموس ، تدحرجت نجوى مثل بلية على السلم ، لتفتن ، ليس لأنه أكل الأمانة لكن بدون غموس.

حتى آخر نفس جاهدت تعية أنيفاً بلا جفون ، وعمارات هضم لا إرادية خاصة تلك الكاوية فى المعدة ، ونوح شيطان فى إقتحامها إلا بأس من حنة فى حجم بنان أكلتها بثلاثة أرغفة ، رغم السكر ، وأمر طبيب مستوصف بربع رغيف ، انكمست بالندم على الحنة ، وثلاثة الأرغفة ، أخذتها غفوة ، وأعادتها يد ترجرجها .. « ماما .. ماما .. الكبدة يا ماما » ، زلزال يتطلب الأشياء ، قفزه واحدة فقط من الكتبة للطاسة ، قفزه سريعة تجاهمت ألام الظهر ، والركبة ، شهقت كفرملة سيارة كانت تقرمنها وهى تسرع بربع الكيلو ، ليكون جاهزاً قبل عودته ، وهو هو من عند الباب استقبلته الرائحة التى بقيت حتى بعد فناء مصدرها .. « ماما .. الكبدة يا ماما .. ».

من أكل الكبدة؟ .. زعق باسم ، والله ما أذاكر إلا بالكبدة...، نزل أحمد من السطح ، وظهر حسين وجمال ، وبذلك السؤال الذي ليس له إجابة، بدأ شجار ، كلمة من هنا ، وكلمة من هنا ، أنت قليل الأدب ، أنت عديم الإحساس ، سمعهم عبده - الوسيط الوحيد - فاندفع يفصل بينهم، انتهز دفعة في كتفه ، ووقع مدعياً بالإغماء ، يقيناً أنه في صراع بين أن يظل في الأرض ، لينصرفوا إليه تاركين العراق ، وأن يسرع قبل أن يكون غياب جسده كجاجز مادي ، سبباً في مزيد من الالتحام ، ويقيناً أنه اختار موصلة الادعاء ، لكنهم لم يلتفتوا إليه ، فلم يجد بدأ من القيام ، مزيحاً نعيمة التي ان kedat عليه ، لتقف بوجه أحمر ، وعين متسعة ، وفم فاغر تغلقة بيدها اليسرى ، ويدها اليمنى لا تدرى أى وضع تتخذه نجوى تبكي في ركن ، بينما كان إسماعيل ياسين واقفاً في طابور بملابس عسكرية ، والشاويش عطية يصرخ مفتاطراً ، مخالى شل.. مخالى شل يا عسكري .. يا عسكري مخالى شل...» ، وأمجد يوزع اهتمامه بين إسماعيل ياسين وبينهم.

خط ثابت طويل

محمد طلبيه

الرحمة من عندك ، الريق يجري في فمك كأنه منبور مفتوح ، ميوعة ، غثيان ، يحتاج إلى فم ليمون ، فم ليمون يا خلق سانتيقاً يا دكتور حقنة ضد القى ، بسرعة حقنة ضد القى ، وأود فصا من ليمون ، شبع حقناً يا عالم دوار ، دوار ، أحشائى تطفو ، لا أستطيع بصدق ريقى ، أبلغه بيملا فمى غيره ، أبلغه ، أمبول يكسر ، مرضنة تسحب السائل إلى السرنجة ، يخلعون السن ، يضعون الحقن في الكاتيولا ، الغثيان يزيد ، سانتيقاً ، سانتيقاً قبل أن يندفع السائل إلى عروقى ، تدفق السائل ، أمعائى تعلو ، تعلو ، تندلع من جوفى فوق الفراش ، يلتتصق بعضها في حلقي ، أدلق جوفى ثانية عاملة تانى بجردل ، غير مهم ، غير مهم ، أمرك يا دكتور ، صنعوا أمبولا آخر ضد القى ، المورفين السبب؟ ممكن يا طارق ، وممكن الجلطة ، استقررت أمعائى ، هدأت رغبتى في القى ، طعم جوفى ما زال يلوث حلقي ، كوب ماء لأنضمض هاتوا

كوب ماء . يديه فى جيبيه ، ينظر فى عينى سأموت يا دكتور ، أعرف أنى سأموت أليس كذلك؟!.

-أزمه وتمر يا عم إسماعيل.

لماذا تكتب عليه ؟ لماذا ؟ أنت تعرف تماما أنه سيموت . إن لم يكن اليوم فندا ، وإن لم يكن غدا فبعد عام أو اثنين . هالك لا محالة ، لا تود أن تنطقها ، تهرب من حروفها ، من وقعتها على سمعك ، لكنك تجابهه كل يوم عشرات المرات . ”قل لى إذن يا طارق ، مازا تحت جلدك الآن؟!.

- لماذا كنت ترفض دخول الطب؟

تمددت الكلمات داخلى ، شاحت ، لا معنى لما سوف تقول يا طارق ، كيف تصوغ سنتيناً ونكريات ومشاعر . آلاف الجمل والكلمات ، العالم متلاطم داخل رأسك ، فماذا تقول؟ وكيف؟.

- أخاف الموت يا هشام .

ما سكتت عاصفة الضحك والهزل وكلمات التهم .. أجال هشام بصره فى الحجرة الزجاجية . قرأت اللوحة المكتوبة فوق رأسه (الجمعية الأدبية ، كلية الطب) خلع نظارته ، كعادته قبل أن يلقى بكلمة الفصل ، نظر إلى السقف ، حاول اختراقه قال:

-واجهه يا طارق ، اجعله أمامك كل يوم حتى تعتاده ، هذه هي الطريقة الوحيدة لسلبه أى معنى .

الكرة الشراب الطافية تبتعد عن الشاطئ ، نس جباها بأيدينا فبيكسوها العرق اللزج ، ننظر إلى بعضنا البعض ، نصوب أعيننا تجاه الكرة الطافية وسط الترعة:

- فلينزل أحدكم لاحضارها .

- أنزل أنت .

العيون المترددة المكسورة ترتد إلى أصحابها . الصبية الذين لم تثبت

شواربهم بعد تدق قلوبهم في عنف . الكرة التي استقرت وسط الترعة تماماً تشتد أعينهم تماماً إليها . الأيام الطويلة المهدورة في تصنيع الكرة تخز صدورهم . المباراة المبتورة بلا نتيجة توسم لهم بالقفز إلى الترعة لإكمالها . اللحظات الممزوجة بالعرق والصرخ ودق القلب تهددهم بالانفلات من بين أيديهم .

- هيا نعود إلى المنزل .

صرخت

- والمباراة !؟

- تكلمها في وقت آخر .

- يا جبان .

نظر إلى متهدلاً .

- هاتها أنت شا شجاع

ملا معدتي خواء هائل ، عرق بارد يزحف فوق ظهرى .. تلعمت .

سانزل أنا يا طارق .

توقف سعيد .. هيا يا سعيد هيا ، لم يبق بينه وبين الكرة سوى ذراعين أو ثلاثة . لماذا توقف الآن ؟ شعره يقطر ماء على ظهره الملوث بطلالب سخامية اللون ، لا تخف يا سعيد ، هيا . ضرب بذراعيه مرة أخرى ، ضربه ، اثنتين ، ابتعدت الكرة قليلاً من أثر . ضرباته ، توقف ، حرك ذراعه بoven ، غطس ، عاشر برأسه ويديه حتى ظهر . ضرباته سريعة لكنه ثابت في مكانه ، ارجع يا سعيد ، غطس ثانية ، سطح الماء هادئ ، هادئ ، لا أثر لسعيد .

سعيد يغرق

انبثق من وسط الماء ، يدير وجهه يمنة ويسرة ، يبحث عن الهواء . ضرب الماء بذراعيه ، أمسك بالكرة ، أدار وجهه تاحيتنا ، تشبت بها ، أخذ يغوص .. وعياته ناظرتان إلى .

المعركة

عمرو التوسانى

تهتز الملاة الحمراء فى يدى التى خدرها التعب.. أحاول أن أشرعها فى الهواء بالطريقة الصحيحة.. حتى لا يفتك بي برأسه الفولاذى وبقرونها التي تتنق لأشائى..

تخوننى أعصابى وتنفلت الملاة من يدى وتقع على الأرض.. ينتهز الفرصة ويشن هجومه بعنفوان لا تمسه شفقة.. يضرب الأرض بحوارفه فتتفتت تحت قوتها يوجه رأسه وقرونها وجسده ويركض نحوى.. ولأننى أعرف أن الوقت لن يسعفى كى أستعيد الملاة.. وأن أعصابى لن تعيننى على غرز السيف فى قلبه.. أركض بكل قوتي.. موقعنا أنه لو طالنى فسوف يدهسننى بلا رحمة..

فى ساحة الحلبة أركض.. لم تترك قدمى أى شبر فيها إلا ووطأته.. وهو - خلفي - لا يكل ولا يمل.. لا يتعب ولا يهدأ.. والمتفرجون يتصايرون.. يشجعون الثور أن يدفن قرونه فى جسدى.. ويشعجوننى كى أقتله بسيفى..

لماذا هذا الثور بالتحديد الذى يضارعنى؟.

لماذا لا يكون ثورا أقل قوة وأكثر نحافة وربما أيضا دون قرون؟.. أستطيع أن أقتله بسرعة دون كل هذا العناء والتعب.. دون أن يكون الموت أقرب منى إليه..

فى اللحظة التى ولدت فيها ولد معى.. عريانين كنا.. ثبكت معا.. ومن الظلمة إلى النور نزلنا معا..

وفي اللحظة التى رأينا فيها الدنيا أعطونى ملاة حمراء وسيفا.. وأعطوه الوصبة بأن يقاتلنى طوال العمر.. وحينما انتهوا من تلاوتها رکض وراءى.. كانت أقدامه وقتها - تتعرش فى صحفة - وكانت أحبو أمامه وأصرخ.. ماسكا ملاة حمراء وسيفا لا أدرى كيف يعينانى على مهاجمته.. بينما قرونه تنموا أمامه كل يوم وتزداد طولا وشراسة.

كان يطاردى طوال اليوم.. وكنت مضطرا أحمى نفسي بمحاولة قتله.. أحاوره بالملاة ويسأله تزييقى بقرونه.. أركض حتى يكاد نبض قلبي أن يخمد.. ويركض خلفى دونما تعب.. ربما لا يتوقف إلا عندما يشعر بالجوع

.. فيتركتني إلى صندوق طعامه في ركن الحلبة .. يظل يأكل ويشرب لساعات عدة .. تاركاً لى مساحة من الوقت للتنفس الأنفاس وتناول الطعام .. وعندما يشبع يشد عضلات جسمه ويستعرض ضراوته .. يشير لى بقرونه فلأملك إلا أن أمسك ملاءته وسيفى وأشهرهما ..

حاولت كثيراً أن أوقف هذه المعركة المستمرة منذ ثلاثين عاماً .. أشرت إليه بأن تكون صديقين .. نعيش في الحلبة ما تبقى لنا في سلام .. لكنه نطحني في جانبي وكاد أن يطحبني لو لا براعتي - بالمارسة - في التخلص منه .. أشرت إلى المتفرجين بأنني زهقت من المعركة .. وأنني أريد أن أرتاح ما تبقى لي .. لم يصفوا إلى كلامي - توسلت إليهم أن يبدلوا هذا الثور بثور أقل قوة .. أستطيع أن أقتله وأرتاح .. لكنهم ربتو على كتفى .. وجفوا عرقى ..

قال عجوز ..

- أقاتل فهذا منذ سبعين عاماً

قالت امرأة صبغت شعرها بذهبية الحناء ..

- أقاتل ضبعاً منذ خمسين عاماً.

قال شاب ذو قوة ورعنونه ..

- أقاتلأسداً منذ ولدت.

قال الآخرون ..

- كل منا يقاتل دون أن يختار عدوه ..

صوت أناوره بأعضاء ما عادت تقوى على حمل الملاءة والسيف ..

وصار يصرير الأرض بحواره فيئن من الألم.

زحف الشيب في شعرى حتى تلاشى ..

وزحف العمر في جسده حتى تحف وهزلت حركاته ..

سقطت الملاءة والسيف من رعشة يدی ..

وسقط بوهن جسده فوق سيقان تنوه بحمله ..

نظرت نحوه متوجساً .. ونظر لى بشفقة .. لم أرها قبلأً ..

اقترينا معاً .. وعندما تواجهنا .. تبادلنا التهنئة لانتهاء المعركة.

بیجرب المشى على رجل واحدة

مسعود شومان

(١) وهو بيعيط بحب

فيه حد يقدر يمشي زى
كده لوحده

وبيملس برقه على الشعر الأبيض
فيه حد يقدر يرقص زى
كده لوحده

وهو سايب ايديه تسوقه للضلامة
زى طير خفيف

بیجرب بنایة عش
« ريش فى ريش فى ريش
ومشاغله وتوشوبيش

* وصوصوه » *

هنا لوحدى
معايا قلب صغير

على قد تنهيدى
يدوبك يشيل دموعى
فيه حد يقدر يتكلم عن نفسه ذى
عن حموله الاحلام
اللى فاضت على الصندوق
أيوه

هو دا المجرى اللي رسيت فيه المراكب
وهي دى الحيطان اللي خربشها الرقص
سايب نقر مجروحه
وكلام حكيم
يقدر يقوله عن نفسه
وهو بيعيط بحب
وبيرقص
وبىجرب
يجرب إيه
ممکن المشى على رجل واحدة
أو النوم على رصيف فى محطة قطر
أو المشى فى شارع طويل
ومحصراه الشبورة
وامش باين غير شفافيه العريضة
مين يقدر ذى
كده لوحدي
يمشى
يغنى
ويسيب قلبه للطير الخفيف
الطير اللي ذى

اللى رفرف حواليا
وأنا فرحان بلمسة طراطيف جناحه
وبعيط بحب

٢٠٠٠ فبراير ٢١-١١

(٤) وهو ماشى فى حاله

ماكانش بيعيط بحرقه
دا كان بيجرب عنيه
دا كان نفسه يشوف دموعه
وهى بتفسل خده من تراب الشارع
ماكانش واخد باله
إن الحفر هاتجيب رجله
وهو بيشاور لطير غريب
وبيقلد رفرفة الجناحين
وبيلوح كتفه
عشان يفادى الشجرة
ماكانش يعرف
وهو ماشى فى حاله
وهو بيدور على حاجة يقدر يلمسها
وتعرق فى حضنه
أو يقرر يسميها .. فينسى
إنه هايترط فى الدنيا
المشى ببطء ناحية شط فاضى = المحبة
المحبة !!

حكاية غامضة

مش قادر يفهم راسها من ديلها

الطموح

الخلود

مين ينجده

وهو ماشى فى حاله

بيظبط مشيت مع دقة قلبه

وهما بيقولوا لبعضهم

لازم نكهربه

بعد مالحقوه العيال

وجرجروه على وشه

ماكانش صعبان عليه الدم

اللى نازل من راسه

دا كان نفسه يتاكد

إن قلبه لسه قادر على الفوران

ماكانش ماشى

ولا كانش مع حد

دا كان بيراقب غيمة

قربت تلمس خده

وهو بيحاول يطير.

١٤ فبراير ٢٠٠٠

(٢) وهو بيذك تحت المطره

عن إيه

عن رجل بتزك تحت المطره
وببعدي النقر
وبتهش البط بعيد عن باجور الحوت
وفي ايه
في ليلة باردة من أمشير
قادم منقد
وغيمة واقفة
وخيال بيتحرك ببطء ع الحيطة
على ايه
على ورقة
طيرها الهوا ناحيتها
من ايه
بالذمة
دا سؤال ا
إذاي
زى ماانت شايف
قادم منقد بالادفى
وعلى ورقة
زى اى حد
بجرب أكتب عنه قصيدة
وهو ماشى يزك تحت المطره.

* من شعر صلاح جاهين

الطريق

جمال راغب الدربياني

بحران يلتقيان لو أبكى معك
بحران يلتقيان لو أمشي إليك
بحران يلتقيان
 وجهك .. لحيتك
بحران لو أنتع
جميع الأوردة
وأبوس عرقاً من يديك
بحران .. بل أبكى معك
بحران لا أبكى عليك
هات إذن ماشتني يا نشي .. دمي
كتساً .. حلبياً رائباً
مراً ..
مزيجاً من هطول ومن لطفي
هات إذن
وطناً يموت

وساقيةٌ

تعشى على سودِ المواثقِ مثلاً
يمشي التوسلُ
في أنوفِ لم تدق يوماً إباهَ
قصفُ وياهَ
قصفُ وياهَ
أسلمتُ روحى يا صديقةَ في دمى
والدمُ يُسلمُ
يا صديقةَ - دون كبرٍ -
ما يشاءُ
ومن يشاءُ

.....
بحران ..

تغرينى صلاتك يا عمرَ
بحران يدفعنى
وضوءك للصلوة

.....
الخيل موعدها المعارك يا عمرَ
والخيل لاتمشى على الأسفلتِ
بل تمشى على سودِ
السحائبِ والبروقِ
الخيل موعدها غدَّ
والخيل موعدها الشروقَ
من قال إنَّ الخيل تمشى للسلام

كذب الوشاة
.. وسيُسوا

يأيها الشيخُ الصديقُ
قدمٌ على قدمٍ
.. طريقٌ
والخيلُ أصبحَ عندها
مرضُ التائبِ
أصبحت تخشى الخروجَ بغير « روج »
تغوى وتدركُ خدرَها
وتموتُ عند فراشها
.. وتغيّبُ ..
من أوجِ لأوجِ

ضحكَت علينا الأغنياتُ
فخلَّنا
من غير لحنٍ ياعُمرْ
ودع الثقافة والهباءَ
وسر بنا
متلحفين بجهلنا
وجمالنا
متوضفين بضوءِ سيفِ
كان - قبلًا -
يُنتصرُ
متوشحين ببعضِ ما جاءت بهِ

كُلُّ القبائلِ
من خنوعٍ
ومن ظفرٍ

.....
كل الثقافة ياعمرَ
أن تمنعَ الرأسَ الجميلَ
لعوسجةٌ
مرتُ عليكَ
ولم تعرِ
دخلت عروقكَ مثلَ طيرِ رايمَ
ومشتَ إليكَ بغيرِ جذرٍ
إنما
ـ سالومى ـ ..
أعطيتكَ الفراشَ فلم تسلِ
وعزفتَ عن حُبِّ الفراشِ
وكنتَ لكُـ
يأيها الشيفُ الملكُ

.....
مرتُ هنا « إيزيس »
هل تهوى تمرُّ؟
مرتُ هنا « بلقيس »،
هل تهوى تمرُّ؟
مرتُ جيوشَ المغلدين
وكسرموا ..
نبتَ الحياةِ وأحرقوه

كأي طقس
من طقوس غرامهم
« قمبيز » يمشي كل ليل
للفراشِ
بعشلِ
من شمعِ أعصابِ القبائلِ
والطيووبِ
وبيهم للذبح الغرافيُّ الكبيرُ

.....
يا أيها الشيطُ الذي
ملا الصحاري عزتين ، وعزه
ودمًا يغورُ
وأنثنيات
علمُ خيولكَ
أن بعضَ الشعرِ مات



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

